

# قراءة في تجربة عبد العزيز الرشيد الاصلاحية

بقلم : د. هلال الشايجي  
جامعة البحرين - كلية الآداب

## ١ - مقدمة :

إن مدار ما نعالجه هنا هو ما تقوم عليه الشخصية الإنسانية في سعيها المستمر وطموحها الغالب، اللذين يدفعانها للمعطاء استجابة لمنبهات تتمخض عنها حاجة ما، أو متنفسا يفرج به الانسان المعطاء عن رغباته وآماله، على أن الشخصية بهذا القدر لن تكون إلا تمثيلا للحالة الذهنية التي يعيشها المثقف وسط تيارات الحياة المتصارعة على أرض الواقع. وشخصية الرشيد من تلك الشخصيات التي تمثلت الواقع الكويتي خاصة والخليجي عامة وانغمست في قضاياها المختلفة، فكان له موقفه الواضح الذي عبر عنه في كتاباته التي أصدرها.



عبد العزيز الرشيد

على أن كتابات الرشيد تتبوأ مكانة مهمة في سياق تكون الخطاب الاصلاحى الحديث في منطقة الخليج الذى انفتح على تيارات الاصلاح الدينى والاجتماعى في الوطن العربى في ضوء التفاعل مع هذه التيارات، والتطلع إلى بعض القيم الجديدة التى تبلورت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومما لا شك فيه أن كتابات الرشيد تجعله رائدا في حركة الاصلاح الخليجى يحقق بها أسبقية في مكونات الخطاب الاصلاحى الذى يرصد جوانب الاصلاح ويزكيها ويدعو إليها، بالإضافة إلى منهجه العام في الإصلاح، وما يبيته من روح تنويرية لا تشغل حيزا منفصلا عن الدين كما يتضح من كتاباته.



على ان منهج القراءة هنا يتيح لنا امكانية التحليل والتصنيف، مما يجعلنا نؤكد على قابلية الخطاب الرشيدي لاستخلاص مجموعة من المكونات التي تجعل منه خطابا اصلاحيا يركز على بعض العناصر الفكرية التي يمكن تحليلها، والكشف عن خلفيتها المعرفية. والقراءة هنا إنما تستمد شرعيتها من إبراز الأسئلة التي انطلق منها الرشيد في خطابه الإصلاحي، والوقوف على مكونات خطابه بوصفه كتابة مغايرة للكتابة السائدة، تدافع عن ضرورة التقدم والرقى، وتخلص الفكرة من عوائد الاستبداد. ومن ثم تكون مسالة هذا الخطاب مسألة لازمة لوعي التطور الذي حدث في المنطقة، والاتصال بكنه الأسئلة التي طرحها الرشيد عن الثقافة السائدة في الكويت والخليج في مطلع هذا القرن، وصوغ الاشكالية الحضارية في هذه المنطقة في مرحلتها المبكرة من هذا القرن.

## ٢ - في الإطار التاريخي لحياة الرشيد:

وإذا كان من البديهي أن حركة الوعي ومسيرته، لها ارتباط مباشر بواقع الحياة والأحوال العامة في المجتمعات، فإنها - في الخليج - قد انحصرت في واقع الانعزال والركود الذي خيم على المجتمع حتى بداية العقد الثالث من القرن العشرين، ولم تتجاوز حركة الوعي واقع البيئة والمجتمع من خلال القطاعين الاجتماعي والفكري الرمزي<sup>(١)</sup>. وإذا كانت حركة الوعي ترتبط أشد الارتباط بقضايا الثقافة والتعليم، فإن تفاصيل الصورة، وتأمل ملامح العصر، وإبراز خطوط الثقافة والتعليم، تؤكد لنا مظاهر الركود والعقم، وتنطق بما يصاحبها من ضيق الأفق وسطحية التفكير، وسداجة النظرة إلى الكون والحياة.

وكانت الوسائل الأولية لانتشار الثقافة هي المتنفس الوحيد لطالب العلم، مثل مدارس الكتاب، وأروقة المساجد التي تقدم الثقافة المحدودة، فيتعلم الطالب شيئا من القرآن الكريم، «وفك الخط». وتذكر بعض المصادر أن التعليم في منطقة الخليج كان يقوم به بعض الأفراد على الطريقة القديمة التي تتوسل بحفظ المتون، ومطالعة الحواشي، وتعد هذه الطريقة مرحلة عليا بالنسبة لطالب العلم حيث إنها تحوي

خلاصة العلوم الإسلامية والعربية، وقد أدت بعض البيوت العلمية هذه المهمة للراغبين في زيادة حصيلتهم العلمية في القطيف والأحساء والبحرين<sup>(٢)</sup>، أما بعض البيئات فقد كانت تعتمد على قراءة القرآن، وفك الخط، ويقال: إن (محمد بن فيروز) الذي نشأ بالأحساء، هو أول من قدم إلى الكويت، واتخذ له مجلساً في أحد المساجد ليعلم الناس ويقضي في خصوصاتهم. كما يحدثننا صاحب (قصة التعليم في الكويت) عن بعض المعلمين الذين وفدوا على الكويت في منتصف القرن التاسع عشر ليقوموا بتعليم مبادئ الحساب والقراءة، ويتخذ هؤلاء (محلات) خاصة لتعليم الناس مثل (الدكاكين) والبيوت<sup>(٣)</sup>.

وظلت الكويت تعيش على أولئك الأفراد المعدودين حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حيث أخذ تعليم القراءة والكتابة ينتشر شيئاً فشيئاً، غير أنه لم يصاحب هذه الجهود الفردية المتفرقة حركة تعليمية منظمة. وقد دفع هذا الوضع بعض الراغبين في العلم إلى التماسه في بيئات أخرى تكون أقدر على بلورة الثقافة التقليدية في الدين واللغة والأدب، مثل بيئة (الحرمين الشريفين) التي أمها بعض الرواد في المنطقة، مما جعلهم يؤثرون الرحلة والانطلاق لزيادة حصيلتهم الثقافية، والتفتح على البيئات الحديثة، وتقبل مظاهر النهضة التي تمثلت في نشأة المدارس الحديثة والأندية والصحافة والمكتبات، حتى أصبحت هذه الأجهزة الثقافية عاملاً مهماً من عوامل المتغيرات الثقافية في مرحلة ما بين الحربين في منطقة الخليج.

وما لا شك فيه أن هؤلاء حين اتجهوا للنهل من بعض تيارات الفكر والصحافة وطوفوا ببعض البيئات المفتوحة، أحسوا بذلك الاختلاف الذي وجد سبيله إلى آرائهم ونظرتهم للحياة، واختلفت درجة ثقافتهم، لأنهم لم يقنعوا بالبدايات الدراسية التقليدية التي تحاول الإبقاء على الممارسات والمفاهيم بعيداً عن المتغيرات الثقافية، وتسعى للحيلولة دون تقبل مظاهر الانفتاح<sup>(٤)</sup>.

لقد برزت في الواقع الاجتماعي والثقافي بعض المتغيرات التي جعلت المجتمع يحس بدبيب الحركة بين أوصاله. وكان من مظاهر هذه الحركة تلك الجهود الإصلاحية، والموقف الفكري والنفسي لمثقف هذه المرحلة تجاه بيئته وواقعه<sup>(٥)</sup>.

ويؤكد هذا التحول الذي طرأ على اتجاهات مثقفي منطقة الخليج فيما بين الحربين، تلك القضايا الإصلاحية والسياسية التي نشرها أبناء الخليج في بعض الصحف المصرية، حيث نستطيع بمقارنة يسيرة أن نرى الفرق بين ما كان متناولا فيما قبل الحرب العالمية الأولى، وبين ما جاء بعدها، وبين طبيعة الاتجاه. حيث ارتفع رصيد المقالات السياسية والإصلاحية التي لم نر لها أثرا قبل الحرب، كما وردت مفاهيم لم تكن مطروقة من قبل، وعولجت قضايا الإصلاح بقدر من التفصيل، مما يدل على اشتداد ساعد الداعين إلى الإصلاح. ويمكن توضيح ذلك بهذا الجدول التقريبي لما نشره الخليجيون في الصحف المصرية منذ بداية القرن العشرين وحتى أواخر العقد الثالث.

الموضوع	الصحيفة	السنة
سؤال	المقتطف	١٨٩٩
سؤال	المقتطف	١٩٠٣
سؤال	المنار	١٩٠٣
سؤال	المقتطف	١٩١٠
سؤال	المقتطف	١٩١١
سؤال	المنار	١٩١١
سؤال	الهلal	١٩١١
سؤال	المقتطف	١٩١٤
سؤال	المقتطف	١٩١٤
مقال سياسي	الأخبار	١٩٢٣
مقال سياسي	الأخبار	١٩٢٣
مقال سياسي	الأخبار	١٩٢٣
مقال سياسي	الأخبار	١٩٢٣
تقرير سياسي	الأخبار	١٩٢٣

١٩٢٤	الأخبار	مقال سياسي
١٩٢٤	الأخبار	تقرير سياسي
١٩٢٤	الأخبار	مقال سياسي
١٩٢٤	الأخبار	مقال سياسي
١٩٢٦	الشورى	مقال سياسي
١٩٢٦	الشورى	مقال سياسي
١٩٢٦	الشورى	مقال اجتماعي اصلاحي
١٩٢٦	الشورى	قصيدة
١٩٢٦	الشورى	قصيدة
١٩٢٦	الشورى	قصيدة
١٩٢٧	الشورى	مقال
١٩٢٧	الشورى	مقال اجتماعي اصلاحي
١٩٢٧	الشورى	مقال اجتماعي اصلاحي
١٩٢٧	الشورى	مقال اجتماعي اصلاحي
١٩٢٧	الشورى	قصيدة
١٩٢٧	الشورى	قصيدة
١٩٢٧	الشورى	قصيدة
١٩٢٨	الشورى	قصيدة

### ٣ - مقومات شخصية :

هذه ملامح الإطار التاريخي لحياة الرشيد بين طورين، تمثلهما شخصيته بما صاحب الطور الأول من جذب، وبما تخضع عنه الطور الثاني من ارهاصات التغيير والتحول، وما دام محتوى الطورين هو الإنسان بثمار خصبه وآماله، فإن الرشيد لبنة محكمة في صرح هذه الصورة، وجزء أصيل من مضمونها، كما أن استنطاق حياة الرشيد، والاستقراء النقدي لجهوده وآرائه يؤديان إلى استجلاء مقومات هذه

الشخصية، فيما انبنت عليه من تجربة اصلاحية واعية، حين تشتد ضغوط المتناقضات بين تلك الشخصية في تلمس أسباب الجمود والتأخر وتأسيس إمكانية التجاوز.

ولعل من أهم مقومات شخصية الرشيد، أنها عاشت حياة نامية تتكامل فيها قوة الإرادة التي لا تهدأ في نضالها ودعوتها، تنبثق منها الآمال من أجل رفعة شأن قومه. والشخصية النامية لا ترضى بالثبات على الجمود والعزلة، إنما تسعى - حينها - تتدافع فيها الآمال والأحلام - للعمل والجهد، فهي شخصية استدعت المرحلة، وطبعتها بميسمها الاصلاحى بالرغم من المعوقات في بيئته.

ولن يكون هناك ما هو أدل على نمو هذه الشخصية من ميلها لاستكمال أدائها الثقافية، ومغالبة المعوقات الاجتماعية، فقد ولد الرشيد في الكويت عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٤م<sup>(٦)</sup> وتلقى علومه الأولية مثل أقرانه في الكويت، ثم رحل إلى الأحساء، وهي مركز علمي تقليدي، كان يؤمه طلاب العلم الديني للدراسة على أيدي رجال البيوت العلمية، وكانت بيئة الأحساء شديدة المقاومة لكل وافد جديد، وكانت تمثل المصدر العلمي القريب بالنسبة لطلاب العلم في الخليج، غير أن أهمية هذا المركز تضاعفت بعد نمو الوعي السياسي والاجتماعي في المنطقة، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حيث أصبحت مصر والبيئات العربية الأخرى تمثل مصدرا ثقافيا اتجه إليه رواد الإصلاح في المنطقة.

تلقى عبدالعزيز الرشيد بعض تعليمه في الأحساء، فبقيت مفاهيمه وممارسته محدودة بهذا الإطار التعليمي، الذي يؤثر الابتعاد عن المؤثرات المختلفة، ولا يؤمن بمصدر آخر للثقافة والفكر، وقد تجلت آراء الرشيد المستزمة في محاربة تعليم المرأة، وتحريم تعليم اللغات الأجنبية<sup>(٧)</sup>. غير أن الرشيد لا يثبت على هذا الجمود والافتداء بمصدر مفرد للثقافة والفكر، فعاش فترة التنقل والرحلة بين المدينة المنورة، والقاهرة واستانبول وأندونيسيا، فتفتحت روحه على ركائز المعرفة المتجددة، ومغالبة واحدية المصدر الثقافي، ولا سيما أن البيئة الكويتية بدأت تستجيب بحذر لمظاهر الانفتاح، فقد كان لبعض التجار الكويتيين صلات قوية بالبيئة الهندية التي كانت تتسع لحركة

التجارة وحركة الفكر، فأمرها رواد الاصلاح من العرب أمثال السيد رشيد رضا، وعبدالعزیز الثعالبي، والشيخ حافظ وهبة وغيرهم. وقد جمعت الصداقة بين هؤلاء الرواد وبين التجار الكويتيين، حتى غدا السيد رشيد رضا من أكثر المهتمين بأمر الكويت كما يظهر ذلك على صفحات مجلة المنار التي كانت الصحيفة المنتشرة بين الفئة القارئة في الكويت في مرحلة ما قبل الحرب الأولى مما أدى إلى وجود وكلاء دائمين لها<sup>(٨)</sup> وتفاعل القراء مع اتجاهاتها الاصلاحية، وبلغ هذا التعاون مداه حين طلب بعض التجار الكويتيين من السيد رشيد رضا معاونتهم في انشاء المدرسة المباركية على أسس حديثة، واسناد مهمة اختيار المدرسين إليه، كما كان السيد رشيد رضا يتردد على الكويت، ويشجع الحكام والتجار على الاهتمام بالعلم وإنشاء المدارس. وقد قال في ذلك: وقد كنت نصحت للمرحوم الشيخ مبارك الصباح بأن يعلم صغار أولاده وأحفاده تعليماً خاصاً، فأجابني بأنهم لا يحتاجون إلى العلم...<sup>(٩)</sup>. وكان للتجار الكويتيين مشاركات فعلية في اتجاهات الرأي العام في تلك المرحلة وذلك من واقع انفتاح البيئة الهندية التي تعج بالمدارس والتجمعات الإسلامية التي كانت تقاوم الاستعمار وحركات التبشير، وقد ذكر صاحب المنار<sup>(١٠)</sup> تلك المبادرة التي قام بها تجار العرب في الهند، لمعاونة الدولة العلية أثناء الحرب البلقانية، وبلغ جملة ما دفعه تجار العرب (١٨٠, ٠٠٠) مائة وثمانين ألف روبية وهي تساوي اثني عشر ألف جنيه انجليزي.

كان الرشيد شاباً يتطلع إلى الانطلاق من أسار البيئة، حيث ولدت صلته بهؤلاء المصلحين رغبة في الرحلة والانفتاح على بيئات جديدة، فعاشت شخصية الرشيد مكوناتها الأساسية مع ما انضاف إليها من مظاهر حضارية، فاحتدت في نفسه مجالات المقارنة بين بيئته في الكويت، وبين تلك البيئات الجديدة المفعمة بحياة العلم والأدب والسياسة في مصر وغيرها، فظاف يستنشق الطريف بين أفنائها، وأحس بتبعات الحياة والجهاد، فعاد إلى الكويت يحمل الأمل، ويتطلع إلى إضاءة وجه الكويت الحضاري، فدخل معترك الحياة لينهض بمسؤوليات المثقف الذي يواجه بيئته بشكوكه وقلقه، فاشتدت ضغوط المتناقضات بين الشخصية الواعية، وبين واقع

المجتمع الذي تعيش فيه، فتكاملت المقومات الشخصية التي تغالب الواقع فتلتمس طريق البناء بمنهج اصلاحي تتجمع فيه إرادة الذات في فعل اختياري، يتجاوز ما يفرضه واقع المجتمع. فأخذ يعرف بجدوى قراءة الصحف - التي كانت محرمة في بيئته - ومنافع الاشتراك فيها، وحارب الدجالين والمتاجرين باسم الدين، وانخرط في الحياة السياسية، وكان عضواً في أول مجلس للشورى في الخليج حيث انشيء في الكويت سنة ١٩٢١، ولم يقتصر جهده العلمي ونشاطه الصحفي على الكويت، بل جاء إلى البحرين، وألقى محاضراته في المنتدى الاسلامي، ومنها انتقل إلى اندونيسيا مواصلاً جهده الاصلاحى .

#### ٤ - قراءة في وثائق الخطاب الاصلاحى الرشيدى :

إن حياة التجربة الاصلاحية للشيخ الرشيد، يمكن حصرها في سنوات قليلة لا تتعدى أصابع اليدين، إلا أن مادة الدراسة من خلال استنطاق وثائق خطابه الاصلاحى تبرهن على جهد أصيل في مكابدة الواقع، وكأن هذا الإطار الزمنى يمتد ليشمل حركة الرشيد ومقومات شخصيته، وقد تراءت هذه المقومات حينما أصدر كتابه (تاريخ الكويت) وواجه اللوم والتأنيب، وغلظة المتهجمين والمتربصين، وتراءت كذلك حينما أصدر مجلته (الكويت) في جو فكرى خائق، ومعوقات في كل الشؤون تقريباً، فلم تكن القدرات الفنية والامكانيات الصحفية ميسرة. غير أننا نلتبس أساس هذا الجهد في العوامل المرتبطة بالشخصية، تلك الشخصية التي انبنت على مقومات تكفل لها القيام بمبادرة العمل، وتحمل تبعات الجهد.

وقد صدرت مجلة (الكويت) في رمضان من سنة ١٣٤٦هـ فبراير ١٩٢٨ معبرة عن الاصلاح ومناصرة لقضاياه، وكان قد سبقها ظهور كتاب (تاريخ الكويت). وتظل مسألة هذه الوثائق لازمة لوعي حركة التطور، مع أبعاد القيمة التاريخية والوثائقية المتمثلة في الكتاب، إلا أنه يقوم من ناحية التشييد الفكرى على النمط الوصفى الذي يعد امتداداً لتوصيف تأليفى، يقع على فرعين قطاعيين في ضبط الحوادث، وتسجيل الحركة الفكرية في الكويت، بحيث يصبح الهيكل العام للتاريخ

انفتاحياً بما يقوم عليه من متابعة الحوادث، والترجمة للاعلام، فيصبح التاريخ مستوعباً لما تحصره الرواية وتعيه الذاكرة، يقول الرشيد: «وبعد فلم أزل راغباً في تدوين ما علق بأذهان أخواني الكويتيين من أخبار وطني وحوادثه، وما طرأ عليه من التقلبات والتطورات منذ تأسيسه»<sup>(١١)</sup>. غير أن الرشيد حاول التحقيق والافادة من الروايات المختلفة ليتأكد من صدق الحوادث، كما أنه أفاد من بعض الوسائل الحديثة لاستكمال عدة الباحث التاريخي ولم يهمل النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وإن كان يلاحظ عليه التفاوت فيختصر فيها يحتاج إلى تحليل، ويطلق فيها يحتاج منه إلى ذلك، ولعل ذلك راجع إلى الصراع المنهجي في التأليف الذي يريد احكام المادة، فيتعثر في تنظيمها نتيجة لاستعصاء المنهج في عرض المادة، ولطبيعة الاستطراد في المسلك، ولا سيما حين تتجمع المادة وتتواتر الأخبار من أفواه الرواة. فهو يقول: <sup>(١٢)</sup> «أقدمت عليه غير معتمد إلا على أفواه النقلة، وأخبار الرواة، وعلى نبذ من الرسميات».

لقد كان الرشيد واعياً بتصنيف الكتاب وتقسيمه، كما أنه يذكر دوافع التصنيف ويقدم الحذر في الاعتماد على بعض الروايات ولا سيما أن السند الرئيسي هو ذاكرته، كما استهدف الرشيد حرية البحث والكتابة، وحاول احكام التصنيف بما يقع من القاريء موقع الرضى، فهو يؤمل ألا تكتم الأفواه عن النطق بالحق، أو تقيد الأفلام عن الجري في ميدان الحرية فإننا في وقت شعر فيه كل فرد أن الحرية هي أسمى ما يتطلبه العقل البشري<sup>(١٣)</sup> ولعل إحكام التصنيف أدى به إلى محاولات التحقيق والافادة من الروايات المختلفة ليتأكد من صدق الحوادث ويصل إلى أسبابها.

وقد قسم الرشيد تاريخه قسمين، تناول في القسم الأول نشأة الكويت وحكامها وحوادثها وعلاقاتها، وذكر شيئاً عن الحالة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، وأفاض في ذكر الحوادث السياسية التي ينساق وراءها بحكم طبيعة الاعتماد على الرواية والاستطراد التاريخي، وتناول في القسم الثاني أقطاب النهضة في الكويت، وقد حرص الرشيد في هذا القسم على الإشادة بتجربة الاصلاح في بلاده في شتى الميادين من خلال تراجم بعض مشاهير الكويت، وتظهر في هذا القسم



مقصدية المؤلف للإشادة بتجربة الاصلاح من خلال عرضه لأعلام الكويت بعد أن خص الحكام بالقسم الأول وكأنه أراد بذلك أن يستكمل حلقة التاريخ بعرضه لتجربة مواطنيه وجهودهم في شتى الميادين المتصلة بتقدم الكويت، وإذا أضفنا إلى القسم الثاني حديثه عن عهد الشيخ أحمد الجابر والإشادة بما حققه للكويت من مساقات اصلاحية أمكننا اقتراح القسم الثاني من تاريخه على هذا النحو المبين في الجدول الآتي :

العناوين	المستوى	السياق ومقصدية الاشادة بالاصلاح
مميزات عصر الأمير	مظاهر تجربة الاصلاح على المستوى الرسمي.	مقارنة بين عصر الأمير ومن سبقه من آبائه واجداده في مظاهر الاصلاح والمشاريع النافعة.
الأمير والمجلس الأمير والمدرسة والنادي والمكتبة الأمير والسيارات البعثة العلمية في عصر الأمير		- تأسيس مجلس للشورى، ماله من ايراد بيض في تأسيس المدارس، وفتح المكتبة، والنادي الأدبي، وتسهيله طرق المواصلات وتسيير السيارات البرية، تشجيعه للبعثات العلمية.
أقوال الأجانب في الأمير		سلامة البلاد، رعايته مصالح العباد، المشاورة، حبه للسلام.
أقطاب النهضة في الكويت	مظاهر تجربة الإصلاح على	البيوت الكويتية المناصرة للإصلاح - مناصرة المشاريع

## مستوى الأهالي

الخيرية علمية وأدبية،  
الاشتراك في الصحف .

## مصلح الكويت

من العاملين في المشاريع  
الخيرة - القيام بحق الوطن  
المقدس .

## الكويتيون والدجالون

فضح أمر الدجالين للعامة -  
الذين أضرموا نار الجمود،  
واخذوا مصايح الحرية  
وتقولوا على العلماء  
والمصلحين .

## إلى من يلوم الدعوة إلى الاتحاد

محاربة الدجالين، الوحدة في  
سبيل ما يرفع الوطن، ويحمي  
العقائد - محاربة المفساد،  
تقوية روح الوحدة -  
الدجالون أحق باللوم في  
تفكيك عرى الوحدة .

## الزعيم التونسي في الكويت

مد الكويت بسلك كهرباء  
الحياة، أجرى فيها روح  
الحركة والنشاط .

## مدارس الكويت

مظاهر تجربة  
الاصلاح على  
مستوى المؤسسات

يذكر مدارس الكويت  
وأسباب تأسيسها ونفعها .

## الجمعية الخيرية

الغرض من تأسيسها اصلاحي  
ديني

## المكتبة الأهلية

احتواؤها على الكتب

والمجلات . الغرض من  
تأسيسها اصلاحي تنويري .  
تبادل الآراء والأفكار - تهذيب  
الأخلاق ، نشر المعلوم  
النافعة ، لقاء المحاضرات  
المفيدة .

النادي الأدبي

مظاهر تجربة الأخذ بعضها ومساعدتها ،  
الاصلاح على ذكر أسباب النهضة ، التعلق  
المستوى الفكري بالصحف ، الآراء الحرة ،  
والأدبي النصائح الثمينة التي ييثرها  
أصحاب الفضل والعلم ،  
ظهور شبان متنورين ، نشأة  
المؤسسات ، كتابة المقالات  
واللقاء المحاضرات .

الحركة الفكرية

استعداد غريب ، وذكاء  
مدهش ، شبان متنورون تجود  
قرائحهم بالنظم البديع والنثر  
الرائع .

استعداد الكويتيين  
وذكائهم

تجلية اتجاه الشعراء الشباب ،  
تقديم نموذج للأدب المصري  
في الكويت ، التعريف بنفسية  
أهل الكويت من خلال  
أدبهم ، ما يدل عليه هذا  
الأدب من مفارقة البداوة  
والتوحش ، تعاملهم مع

صحيفة الأدب  
العصري

موضوعات جديدة، تخصيص  
القسط الأكبر لأدب الشباب،  
انتشال هذا الأدب من زوايا  
الامهال والظلم.

وتبلور هذه العناوين بسياقاتها المختلفة البنية الأساسية المشكلة للجزء الثاني من تاريخه، ونلتبس فيه تداخل دلالات الخطاب، مما يدل على أن الغرض الأساسي هو الاشارة بالتجربة الاصلاحية في بلاده، بوصفها طريقاً تؤهل لتجاوز الاشكالية الحضارية، كما تدل على أن مقصدية المؤلف ترتبط بنموذجية الإصلاح، مما يدعو للقول إن الاصلاح حركة لازمة لاستمرار الحياة والتقدم، وتجاوز أشكالية الجمود والتعصب والعزلة، وعوائد الاستبداد الثقافي والسياسي.

لقد كانت أفكار الاصلاح التي أرساها الافغاني ومحمد عبده، تهاجر في سماء الأمة الاسلامية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مما أدى إلى وجود مجموعات من المصلحين في شتى بقاع العالم الإسلامي، ممن تأثروا بأصداء تعاليمهما في الاصلاح والتغيير، وبما أمتزج به هذا الاصلاح ببعض العناصر التنويرية، بيد أن الاصلاح والتنوير ليسا شئياً واحداً، ذلك أن ايديولوجيي الاصلاح كانوا يتخذون من الفكرة القائلة بدور الدين الحاسم في الحياة نقطة انطلاق لهم، بينما لا يرى المنسورون حدوث هذا التقدم والتحول إلا على أساس من العقل، وبمساعدة المعارف التنويرية.

ومعنى ذلك أن وراء المظاهر الاصلاحية التي يشيد بها الرشيد، قبولاً لمبدأ التغيير الذي تقاومه الفئة الأخرى التي تتشبث بالقديم، وتحاول جاهدة أن تمنع أي تغيير يطرأ على الحياة، غير أن الاعتراف بهذا التغيير يظل قائماً على الأساس الإسلامي. أما مجلة (الكويت) التي صدرت بعد (تاريخ الكويت) فقد كانت مشمولات البحث فيها تؤسس التوجهات الاصلاحية للرشيد، وكان الوعي بروح المرحلة التي تمر بها الكويت والخليج بصورة عامة، يواكب الدوافع والتبويب،

فتصدرت موضوعاتها دعائم أرساء ثوابت الأساس المعرفي، في ضوء المتغيرات التي تعد فرعا لهذه الأصول الثابتة، بحيث تكون لهذه الأصول سلطة مركزية تحدد رؤية العالم ومعرفته سواء بالنسبة للقديم أو الجديد ومن ثم جاءت أبواب البحث في هذه المجلة كما يلي<sup>(١٤)</sup>:

١ - الدين . . وفيه البحث عن أصوله وفروعه، وعن عقائده وقواعده وأحكامه وأسرارها.

٢ - رد الشبهات عن الدين: نبطل فيه كل شبهة توجه إليه وإلى أحكامه، وإلى النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن، مما نخشى أن يكون في الوقوف عليه فتنة لبعض الضعفاء. ومن هذا الباب الجمع بين آيات ظاهرها التناقض والجواب عما يرى أنه مخالف للواقع منها وليس كذلك.

٣ - الأخلاق . . يذكر فيه المهم من حسنها وقبيحها مع بيان ما ينشأ عن القسمين من منافع وأضرار، والاستشهاد على كل بما يحسن الاستشهاد به.

٤ - القديم والجديد . . يدور محوره على مساويء ومحاسن كل من القسمين من عادات وأخلاق وعلوم ومناهج وآراء.

٥ - الأدب ويعنى قبل كل شيء بالأدب في الكويت، وينشر ما تجود به قرائح شعرائنا اليوم ثم بالأدب في البلاد التي على ضفاف الخليج . . كالبحرين وعمان ومسقط وبلاد نجد والاحساء.

٦ - التاريخ: ينشر فيه ما فات من تاريخ الكويت الذي طبعناه في بغداد، وبالأخص البحث عن القبائل البدوية هناك، وعن أحوال البيوتات الكبيرة فيها وما يسمح الوقت بنشره من حوادثها المستجدة.

٧ - التراجم . . ينشر فيه تراجم القسم الثاني من تاريخ الكويت الذي لم نطبعه إلى الآن، ويزاد فيه من يرى بذكر تراجمهم فائدة عامة من الموجودين والماضين أيضا. ولو كان خارجا عن شرط القسم الثاني من التاريخ.

٨ - الفتوى . . فتحناه لجواب كل سؤال لا يخرج عن دائرة المجلة من مشترك أو غيره .

٩ - اللغة . . يبحث فيه بنوع خاص عن اللغة العامية في الكويت وعن كل ما يستفيد منه المبتديء والمتنهي من الفوائد اللغوية بسائر أنواعها نحوية أو صرفية أو غيرها .

١٠ - التقريظ والانتقاد . . توزن فيه المؤلفات بميزان الإنصاف ويعطى كل منها ما يستحق من تقريظ وانتقاد .

١١ - متفرقات الفوائد . . . يحوي كل ما يدخل أحد أبواب المجلة من سائر الفوائد على اختلافها .

ونشير هنا إلى بعض الأمور التي تستحق التسجيل نتيجة للقراءة المبدئية في مباحث مجلته :

أولاً : تكمن الملاحظة الأولية في التنبيه على هذا الوصف الخارجي لمباحث المجلة ذلك أن القسط المخصص لمباحث الدين وما يتصل به يشكل النصف ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ذلك أن مساويء القديم والجديد إنما ترتبط بسياقات دينية وخلقية ، أما اللغة فقد كان اهتمامها على أساس الربط بينها وبين المحور الديني المتمثل في القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يقدم اللغة العامية رمزاً لتطرف المجددين ، وبناء على ذلك فإن مقصدية الرشيد ترتبط بصورة واضحة بالاصلاح الديني .

ثانياً : تصدرت هذه القائمة من المباحث موضوعات تتصف بالنزعة النضالية ، وخاصة في المباحث ١ ، ٢ ، ٣ ويعد ذلك دخولاً في حقل الجدل والمناقشة الحوارية ، مما يؤدي إلى القول بأن للرشيد قضية اصلاحية أو مهمة اصلاحية يوجهها تلك الوجهة النضالية ، حيث دخلت هذه العناوين مدخل المدافعة والمشاكسة بين الطرفين المتنازعين القديم والجديد ، ومن ثم جاء النسق الرمزي (طبيعة اللغة) التي

يستخدمها في مثل هذه المواقف أكثر ميلاً إلى الأسلوب الجدلي الحوارى مما جعل معالجته اللغوية تتسم بالنزعة النضالية كما سيتضح ذلك فيما بعد.

ثالثاً: حاول الرشيد في مجلته أن يجسد واقع الانفتاح الكويتى على الواقع الخليجى والعربى، فتعددت المباحث والاهتمامات لتستهوى لها الأقلام المتعددة توخياً للفائدة، وتعريفاً بالبيئات العلمية والأدبية في الأقطار العربية عامة والخليجية خاصة، فنقلت البحوث الدينية والفلسفية التي تناسب اتجاه المجلة، واستكثبت بعض الباحثين وعرضت للكتب مقرظة أصحابها معرفة بها، ونشرت المقطوعات الشعرية المختلفة، ونقلت المعارك الفكرية والأدبية التي تجري على صفحات الجرائد والمجلات المصرية. وحاول الرشيد أن يضفي على أبواب مجلته قدراً من التناسب بحيث لا يستغرق الاتجاه الدينى كل مباحث مجلته، ومن ثم كان تعديله المستمر على هذه الأبواب بالإضافة والتغيير، فقد زادت المادة الأدبية والترفيهية في الأعداد التالية للعدد الأول، وأضاف باباً جديداً بعنوان «صحيفة التلميذ» في محاولة منه لنشر ما تجود به قرائح الطلاب سواء أكانوا من مدرسة الكويت، أم مدارس البحرين والخليج وكان ينوي أن يصرف عنايته الخاصة للبحوث الاجتماعية لو مكنته الظروف من الاستمرار في إصدار مجلته إلا أن توقف مجلته قبل أن تنهى ستنها الثانية ومغادرته الكويت حرماناً متابعة جهوده الإصلاحية بعد أن روى أرض الكويت بحس الإصلاح وديب حركته، على أن هذه الملاحظات الأولية على وثائقه الإصلاحية تدعونا لتلمس أهم التوجهات في خطابه الإصلاحى.

## ٥ - التوجهات الأساسية في الخطاب الإصلاحى الرشيدى

### أ - طبيعة المعرفة:

كانت الآراء الإصلاحية عند الرشيد تتبع التوجهات الأساسية لحركة الإصلاح الإسلامى في مرحلة الإحياء، من حيث الثقة بالمصادر المعرفية التي لا تؤمن بالانقطاع، ومن ثم كانت الرؤية نظراً وتطبيقاً منحازة إلى القديم الأصيل، بحيث تفترض هذه الرؤية قبول التجديد بناء على الأصول المعرفية أو ما يسمونه بطبقات

العلم عندهم ، ويتقدمها الكتاب والسنة وما يصار إليه من اجماع وقياس<sup>(١٥)</sup> ، وتنقاد الآراء الاصلاحية بأكملها للنموذج العربي الاسلامي ذي الأساس الديني . ذلك أن كل ما يكتبه الرشيد ويراه إنما هو منزل في السياق المرجعي الديني والتراثي برؤيته الميتافيزيقية ، فطبيعة الاتجاه الاصلاحى عنده طبيعة موالية للايديولوجية الاسلامية ذات النموذج المتشكل في الماضي ، والمتنصب في الحاضر والمستقبل ، وأي خروج عن النموذج الذي يمتلك أحقية الوجود بالدليل والاجماع - سواء أكان هذا الخروج بما يدعيه أنصار القديم أم الجديد - إنما هو تدمير للدين واختراق لصلبه .

ومعنى ذلك أن الاصلاح عند الرشيد يرد في سياق التحرر من الجمود والتعصب والجهل والتقاليد والخرافات ، كما يرد في سياق تحرير الجديد من التغرب في مساحات معرفية غريبة تدمر حس الوحدة المعرفية والثقافية للأمة .

والآراء الاصلاحية تشكل موجة انصهار على مستوى الوعي بحيث يكون الجديد فرعاً على الدليل والاجماع ، ويسير في سياق النموذج الحي الباقي ، لأن بقاءه فيه معنى الحياة والاتقان . فالرؤية الاصلاحية رؤية منسجمة متجانسة مع الدليل والاجماع ، ومن ثم تكون الأدوات المستخدمة في الفكر ، هي الأدوات المعرفية الأصلية التي تنتمي إلى القرآن والسنة والمرجعية الثقافية الاسلامية . فالعقل بهذه المثابة يقوم بوظيفته في إطار ما اكتسبه من بنية أصولية (ابستمولوجية) وليس الجديد إلا فرعاً على هذه الأصول ، كما تتأسس هذه الرؤية على المستوى (الايديولوجي) فتكون العقيدة الاسلامية سلطة موجهة للرأي .

لقد كانت طبيعة المعرفة الرشيدية تتجسد في منطق بناء الثوابت والأصول في العقيدة وما يترتب عليها من فروع ، أو قياس الفرع على الأصل في كل الحقول المعرفية تقريباً ولا سيما في الحقل الديني لأن حاجته إلى الأصول أشد . فيكون رد الفرع على الأصل آلية فقهية تحسد غمط المعرفة في الحقول المعرفية الأخرى ، ومن ثم يكون المبحث الأول من مباحث مجلته مرجعاً أساسياً للمفاهيم المتداولة عند الرشيد ، كالاصلاح ، والقديم ، والجديد ، ولا يكون لهذه المفاهيم وجود ومعنى إلا من جهة



العلم بهذه الثوابت التي تؤسس العقيدة الاصلاحية السليمة، فيدخل القديم والجديد إطار السلب حينما يحيدان عن تلك الأصول من خبر لازم، كتاب وسنة . وكان البدء بتحديد المرجع الأصولي ضرورة حتمها ما يدور في بيئته من ولع التحريم والتكفير الذي عانى منه الرشيد، حيث تصدر للقول في الدين من خلطه بالبدع وتولى أمور ارشادهم جهالهم، وسهل رمي الآخرين بالمروق لأدنى سبب، فهو يقول<sup>(١٦)</sup> : «وإني وقد أناخ عليّ الدهر وأزعجني بنوبه، وأمضني حين رماني بقوم يأخذون عليّ الحق إذا به نطقت، ويطيرون بالخطأ إذا به وقعت، رماني بما لا أحب الأفاضة فيه هنا» .

وبالرغم من أن مهمة الاصلاح عند الاصلاحيين الاسلاميين قد أفادت من الطرح التنويري كما يتضح ذلك عند محمد عبده مثلاً<sup>(١٧)</sup> إلا أن بنية الدلالة في جهاز الخطاب الرشيدي تسلمنا إلى أن الجهاز المرجعي والمفهومي هو الاسلام بعطائه الديني والحضاري ومن ثم تتعين طبيعة التضافر والولاء بين آراء الرشيد والاسلام .

إن المستوى المعرفي في الخطاب الرشيدي يظل مشدوداً إلى اشكالية زحزحة ما يشوب القديم من خرافات وتعصب وجمود حيث عانى منه الرشيد في بيئته المعاناة كلها مما جعله يرجع انتصار الجديد على القديم وأهله .

## ب - الاحتفال بالإصلاح :

وعندما نتأمل الخطاب الرشيدي نرى أن الرشيد يتقصد استخلاص أفكار معينة، يريد ابرازها والدفاع عنها ضمناً، يتضح ذلك من استعراضنا لخطابه الاصلاحى في عناصره وعلاقاته ونستطيع أن نستخلص البنية الأساسية التي تشكل مآزده إلى فيما يلي :

- ١ - علاقة الاصلاح بالتقدم والنهضة .
- ٢ - علاقة الاصلاح بالفهم الصحيح للدين وتقويم الخلق .
- ٣ - اختلاف المصلحين عن أصحاب المنهجين القديم والجديد .

#### ٤ - المنهج الاصلاحى والتحرر من عوائد الاستبداد الثقافى والسياسى .

وإلى جانب هذه البنية الاساسية التى استخلصناها نجد ذكراً لبعض الأعلام تتداخل مع هذه التوجهات بقصد المقارنة أو الاشادة، مثل محمد عبده، رشيد رضا، عبدالعزيز الثعالبي، فريد وجدي، حافظ وهبة، ويعنى ذلك عند الرشيد إظهار المنهج الاصلاحى بوصفه طريقة تمكن من فك إشكالية القديم والجديد الذى هو من المهام الأساسية عند الرشيد مما يجعل المنهج الاصلاحى قادراً على تأمين النهضة والتقدم فيأخذ من كمال القديم ومحاسنه بقدر ما يأخذ من كمال الجديد ومحاسنه بمنهج متحرر جديد على الرقعة المجتمعية والثقافية فى الكويت والخليج «وقد علموا كما علمنا أن الحكمة ليست ملكاً لفرد دون آخر، ولا حصّة لأمة دون أختها، ولا مزية لوقت من الأوقات، وأن انتشارها فى كل قطر وزمان كانتشار الأثير فى الفضاء، وقد أبيع تناولها لكل من أرادها»<sup>(١٨)</sup>. ولعل التوجه إلى فتح باب الاجتهاد عند الاصلاحيين كان مقصوداً به مواجهة التقليد وما شاب القديم من سياقات الجمود والتعصب، فقد سلّم المصلحون بمبدأ الاجتهاد حتى توسع بعضهم فى فهمه كما فعل محمد عبده<sup>(١٩)</sup>.

إن مواجهة ممثلى التخلف والجمود والتعصب، وكذلك مواجهة النخبة المجددة التى تتابع نموجية الغرب العلمانية هما اللذان سيجعلان رواد الفكر الاصلاحى يتبنون تلك المخططات الاصلاحية القائمة على تجاوز جدلية القديم والجديد بعد تنقية القديم من آفات التخلف والجمود، وتنقية الجديد من محاولات التفريط والانبئات المعرفى من أجل نهضة المجتمع العربى المسلم، ومن ثم يأتى فهم الاصلاح عند الرشيد أفقا لتجاوز القديم والجديد كما يفهم من حديثه عن القديم والجديد «فى القديم كما فى الجديد محاسن ومساويء، وفى القديم كما فى الجديد فضائل ودرائل، وفى ساحة كل منهما كمال ونقص، إذن فمن التعصب الذى لا يحتمل أن يرفض أحدهما بكل ما فيه ويؤخذ الثانى بأجمعه، لا لشيء إلا لأن هذا جديد وذاك قديم، ولا أحسب من يرفع عقيرته بهذا إلا قد سد على نفسه الطرق، وهد حصن مذهبه بيده وأعطى خصمه سيفاً يحز به عنقه.

وما دمنّا نعرف أن الحكيم هو من لا ينظر إلا إلى ما يقيه العمل من أثر غير مهتد بعده بمصدره ومنشأه، نعلم جيداً مبلغ الخطأ الذي سلكه الفريقان، ومبلغ ما أتوه من تحقيق، ومقدار انصافهم الذي له يدعون<sup>(٢٠)</sup>.

ومن خلال الإجابات التي يقدمها الرشيد في خطابه من حيث زحزحة القديم بسياقاته المعينة من تعصب وجود وتخلف وجهل، وتمثله للروح الاصلاحية في التقدم والنهضة، واستيحاء مخطط الاصلاحيين ومواقفهم الدينية والاجتماعية، يمكننا أن نصوغ السؤال الأساسي الذي انطلق منه الرشيد ليتبنى المنهج الاصلاحى وهو ضمناً على النحو التالي: كيف يتحرر الكويتيون والخليجيون من الجمود والعزلة والتعصب والتخلف، ويتقدمون في ميدان النهضة الاجتماعية والثقافية؟

على ان الإجابة إنما تقوم على نقطة ارتكاز واضحة في منهج الاصلاحيين تتجلى في الالحاح على اعادة اصلاح الدين بما يتبعه من اصلاح في شتى الميادين على أنه ممكن أساسي للتجاوز، ومن ثم يتحدد مفهوم الاصلاح عند الرشيد من خلال مستويين يردان في سياقات خطابه مع ما يكتنف ذلك من التباس وتعميم:

١ - مستوى معارض لمفهوم القديم كما هو شائع عند ممارسيه في البيئة الكويتية وغيرها من بيئات الخليج، ويتحدد مفهوم القديم هنا بسياقات الجهل والجمود والتعصب والاستبداد. ويستمد الرشيد مفهوم الاصلاح من سماحة الدين ويسره وصلاحيته لكل زمان ومكان ودعوته المتجددة وتصفيته من نقائص الجهل والجمود والتخلف ليعود الدين إلى حقيقة نقائه.

٢ - ومستوى آخر يستمد الرشيد من محور تنويري يظل مشدوداً إلى الدين غير أنه يقترح فيه الاهتداء بما وصلته البلاد المتمدينة في صياغة المؤسسات النافعة والاختلاط بالمفكرين والعلماء المخلصين بحيث يجسد ذلك حدود تعاطفه مع الجديد أو مع ما تحتاجه النهضة في الخليج، ويصل بهذا المستوى إلى معارضته للاستبداد السياسي ودعوته لاتساع نطاق الحرية.

وبالرغم من أن الرشيد لم يذهب مع العقل بلا قيد أو شرط، ولم يختبر

الاعتقادات الدينية بمحك عقلي لا يركز على ثوابت المعرفة الدينية وأصولها، وإنما هو فهم في سياق حركة الإصلاح الديني والاجتماعي، فإنه انتهى الى تقديم الاصلاح الممتزج ببعض عناصر التنوير أفقاً للتجاوز، وإن كان المنهج العام يقوم على تسويق ما هو معاصر وجديد بما هو أصيل وقديم حي، فالرؤية تطل من مركزية التراث بسننه وقوانينه الأصيلة الحية، وما تقوم عليه هذه الرؤية من أن للأمة الإسلامية طريقها الخاص في التطور. ومن ثم كان للإسلام دوره الأساسي المميز في بناء النظام الاجتماعي، وقدرته الفعالة على تأمين التقدم.

إن المستوى المعرفي عند الرشيد يظل مشدوداً إلى ثوابت المعرفة الدينية، ولا نعثر في خطابه على معرفة تركز على نسق مستمد من مستوى معرفي من مجال علمي آخر غير ما ذكرناه من امتزاج بعض عناصر التنوير كما تردت في كتابات الاصلاحيين المسلمين، مع ما يكتنف هذه التوجهات من عوامل التوفيق بين القديم والجديد، وذلك من خلال تبني الحوار بينهما. ذلك أن مساويء أنصار القديم وجهلهم أديا إلى فشل منهجهم في الاصلاح مما دعا الرشيد إلى القول «وهذا ما يدعوننا أن نرجح انتصار الجديد على القديم وأهله اليوم ونكاد نرجح انتصاره لولا ذلك الحزب المعتدل الذي وقف له بالمرصاد وهو أقوى منه شكيمة وأمضى سلاحاً وأصح برهاناً، حزب الحق الذي يريد أن يتناول من المذهبين كل جميل، ويرفض منها كل قبيح»<sup>(٢١)</sup>.

ومن ثم يرتبط مفهوم الاصلاح في الخطاب الرشيدي بصلات دينية أساسية وبعض العناصر التنويرية، غير أن مفهوم الاصلاح عنده يكتنفه الاطار الاسلامي فقد كان الاصلاحيون يتخذون من الفكرة القائلة بدور الدين الحاسم في حياة الناس وتأمين التقدم نقطة انطلاق لهم، ولم يكن المنورون يرون حدوث ذلك التحول إلا على أساس العقل وبمساعدة المعارف التنويرية. وما لا شك فيه أن الاصلاح الديني ساعد على تقبل بعض الأفكار التقدمية التي شاعت في بلدان العالم العربي، كما نستطيع أن نلاحظ شيئاً من هذه الأفكار التي تسربت في كتابات الرشيد وذلك من خلال دراستنا للمفاهيم المركزية في الخطاب الرشيدي (الاصلاح) (القديم) (الجديد) وبيان مراجعها وأصولاتها<sup>(٢٢)</sup> وعلاقتها بالتقدم والنهضة أو الفهم الصحيح

للدين وتقويم الخلق ، أو علاقتها بالتححرر من عوائد الاستبداد الثقافي .

ونورد هنا السياقات التي تظهر فيها علاقة الاصلاح ومرادفاته أو أعلامه أو المهتمين به بالنهضة والتقدم كما يتضح في هذه العينة :

(التعلق بأذيال الصحف - اشتغالهم بمطالعتها - الاهتمام بنبراسها - أفكارهم الراقية - القيام بحق الوطن المقدس - المشاريع النافعة علمية وأدبية - نشر العلوم والمعارف - الحرية التامة - مناصرة العلم والأدب - العلوم العصرية كالهندسة والجغرافيا - ظهور شبان متنورين امتلأوا حماسة وغيرة - انهاض الوطن إلى العلا - كان العلم منهم سلاحاً قاطعاً - التسابق في تلك الميادين النضرة - ميادين المشاريع النافعة) .

ونلاحظ أن العلاقة التي يقيمها الرشيد بين الاصلاح في مظاهره المختلفة وبين النهضة والتقدم في البيئة الكويتية علاقة اشادة وتوجيه ، وهي كذلك علاقة تكامل مما يعني أن المنهج الاصلاحى هو المؤهل لتجاوز اشكالية التخلف كما هو عند الرشيد .

كما نجد أن العلاقة بين الاصلاح ومناصريه ، وبين الدين في فهمه الصحيح علاقة أساسية وتأكيديّة مما يعنى أهمية الدين في حياة الناس كما يتضح من السياقات الآتية :

(الأخلاق الفاضلة - الآداب الجمّة - ميل إلى العلم وأهله - مناصرة المشاريع الخيرة - أديانهم المتينة - أعراضهم النقية الطاهرة - أقدام راسخة في العلم والدين - أهل الفضل والعلم - أحدث انقلاباً بين أهل الكويت بخطبه الرنانة - المصلحين الأفاضل - أساطين الاسلام) .

ويظل الدين أساس هذه السياقات ومركزها بماله من دور مركزي مميز في حركة الاصلاح .

كما يتصل مفهوم الاصلاح بالتححرر من عوائد الاستبداد الثقافي من خلال السياقات الآتية :

(فضحهم دسائس الغش والخداع - اقتلعوا من أذهان الكثيرين أدغال الجمود - حصدوا أشواك التعصب - بذروا البذور الطيبة الصالحة - تنجّاب الغيايب لبوادر هداهم ومعرفتهم - اقبال على الإصلاح وأهله - صحيفتهم البيضاء النقية).

على أن الظاهرة الواضحة هنا هي تداخل دلالات الخطاب في السياقات الواردة مما يؤكد مقصدية الإشادة بهذه التجربة أو بنموذجية الإصلاح، وبمعنى آخر فإن تفكيك سياقات الخطاب الذي عمدنا إليه فيما سبق إنما هو تقريبي لا ينفي ذلك التعاضد والتأكيد في الخطاب الإصلاحية الرشيدية. وعلى أساس هذا الفهم للإصلاح والإشادة بأهله وتوجهاته ميز الرشيد بينه وبين مساويء المنهج القديم في البيئة الكويتية والخليجية، وما يقوم عليه هذا المنهج من سلبات مشروطة بسياقات التعصب والجهل والجمود وغيرها، ومن ثم اتصل مفهوم القديم ومرادفاته وتابعيه بمراجع أو صلات سلبية تحقيرية تجسد الأبعاد الضدية لسياقات الإصلاح التي ذكرناها سابقاً ونورد هنا السياقات التي يظهر فيها مفهوم القديم:

(الجهل - فشل المذهب - مخالفة الحق - اضرار نار الجمود - اخماد مصابيح الحرية الحققة - بث الفتنة - الزيغ والضلال - سهولة اطلاق الكفر والاحاد على المسلمين - استحلال دماء الموحدين - تكفير المصلحين - التعصب الذميمة - الوعظ البارد - الإرشاد المظلم - التعريض بمدارس الكويت - التنفير من نهضتها، والكتب العصرية ومطالعة الصحف - تحريم علوم الجغرافيا والهندسة والتاريخ - عباد الشهوات - امراء التقليد - أذئاب ينتسبون إلى العلم بهتاناً وزوراً - آثارهم السيئة - زلزلة عقائد العامة بالدجل).

وقد عبر الرشيد في هذا الاستخلاص عن التمييز بين الاتجاهين المتعارضين في البيئة الكويتية وعن مقصدية الإشادة والتحقير بقوله (٢٣) «هذه الصحيفة بيضاء لهؤلاء الأمجاد النبلاء سطرنا فيها أعمالهم الجليلة التي يجب من جرائها رفعهم إلى مقام الإجلال والإكبار ما تخللت أرواحنا الاجساد.

هذه هي صحيفتهم النقية وأعمالهم الطاهرة، ولا ريب في أن من مواطنهم من

لو أردنا الكتابة عنه لكانت ويا للأسف صحيفة سوداء قاتمة، ترمي النفس بشرر الغم والحزن، فمنهم من لا يوصف إلا بالصفات الذميمة من بخل وشح إلى خور في العزيمة، ومن كبر وإعجاب، إلى نفرة من الإصلاح وأهله.

وبودي لو سُنحت الفرصة في هؤلاء لأضم صحيفتهم السوداء إلى تلك الصحيفة البيضاء النقية حتى يعرف القراء البون الشاسع بين الفريقين، ويعرف كل فريق ما يستحقه دون زميله من مدح أو ضده.

ج - أما من حيث الإصلاح السياسي الذي هو جزء من شمولية الإصلاح عنده حيث ركز فيه الرشيد على أثر الحكم المستبد وهي قضية نجدها عند الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعند الكواكبي بصورة مفصلة. فقد تعرض لها الرشيد في كتابه (تاريخ الكويت) أكثر مما تعرض لها في مجلته التي اتجه فيها للابتعاد عن السياسة في مظاهرها الواقعية وتطرق إليها من وجهة نظر دينية يسيرة حينما قارن بين القانون الالهي (الشرعية) وبين القانون الوضعي بقوله «فأين هذا كله من قانون تسنه طائفة من البشر قد لا تسلم من الميل والهوى فيما تسن وقد يكون في غيرها من هو أوسع منها علماً وأكثر اختباراً وأدق إدراكاً، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فلا شك أن ما تشرعه لا يصلح إلا لأمة دون أختها وإلا لوقت دون آخر، وإن كان صالحاً (ولا إخاله) عدا ما فيه من عيب وخلل<sup>(٢٤)</sup>، وعدا ما فيه من مواد لا تزيد الخلق إلا اضطراباً ولا الأخلاق الظاهرة إلا ويلاً» فالرشيد - كما جاء في بعض المواقع من مجلته - يرى السياسة مخالفة للحق حيناً، ومخالفة للضمير آونة أخرى، وحظر على المجلة السير في طريقها وصرح بذلك، في الجزء ٢، ٣ من مجلته حينما فتح باب «صحيفة التلميذ» فهو يدعو الطلاب من مدارس الخليج للكتابة في أي موضوع كان، ماعدا السياسة وما يؤول إليها.

إن التعرض لمثل هذه القضايا في مجلة تمثل الكويت يؤدي إلى تفتيت علاقات كان حقاً تثبيتها وتقوية دعائمها، وقد جرب الرشيد ردود الفعل في كتابه حينما تعرض للبلاد والقبائل والعشائر والأفراد وخاصة أن التاريخ السياسي وذكر



الحوادث لا يضمن الحيدة، يزيد من ذلك ظروف البيئة المحدودة وعلاقات الجوار التي غالباً ما يعكر صفو الود بينها مثل هذه الأحداث والاختلاف في لقاء التبعات.

أما موقف الرشيد من الواقع السياسي فإنه يتجلى أكثر في كتابه (تاريخ الكويت) ويمثل الاستبداد عنده تجربة مثيرة عايشها وعانهاها، وعمقت في نفسه الإحساس بمأساة الإنسان ويطلق عليه الرشيد «الاستبداد الجائر» وكان الرشيد في ذلك يلح إلى قبوله (الحكم الأرستقراطي) الذي يقوم على الشورى ويكفل مناخ الحرية والإصلاح ويقوم على مبدأ حماية الأموال والممتلكات كما هو عهد الشيخ (أحمد الجابر)، كما أنه قد يقبل (حكماً استبدادياً عادلاً) يهيء للناس طريق الخلاص بالاصلاح والعلم للذين يخفون من ويلات الاستبداد، وهو يذكر من هؤلاء المستبدن الذين نالوا الاحترام والمحبة وسكنت محبتهم القلوب بسبب نشرهم العلم بين الناس، وانقاذهم من الجهل، الرشيد وابنه المأمون، وعبدالرحمن الناصر وابنه الحكم، ومحمد علي باشا.

وقد ألح الرشيد إلى أن وظائف الحكم تكون في تلبية حاجات الناس، وضمان العدالة وحماية الأموال والممتلكات والأعراض، ونشر العلم، وتهيئة طرق الاصلاح. ووجه الرشيد نقداً حاداً للاستبداد وما يولده من صفات سلبية، وأكد أن الاستبداد



لا يتفق مع الأخلاق ولا القرآن، وأنه سبب في انعدام العدالة والاضطهاد وتكريس الجهل، وسد منافذ الإصلاح بحيث تكون كراهته ذات بعد قيمي فهو عنده من الأخلاق المذمومة، ولذلك تجسدت هذه الأبعاد القيمية في مراجع الاستبداد وصلاته .

ويمكننا تقديم هذه العينة لمراجع وصلات مفهوم الاستبداد عند الرشيد من خلال تحليل ألسني دلالي:

المفهوم	السياق	الحقل
الاستبداد ←	انعدام العدالة	اجتماعي
الاستبداد ←	الجور والاضطهاد	سياسي
الاستبداد ←	افتقاد الأمن	سياسي اجتماعي
الاستبداد ←	الظلم	سياسي اجتماعي
الاستبداد ←	محاربة العلم وأهله	ثقافي
الاستبداد ←	يتنافى مع مبدأ حماية الأموال والممتلكات	اجتماعي
الاستبداد ←	التخلف	اجتماعي ثقافي
الاستبداد ←	الجمود عن الإصلاح	اجتماعي ثقافي
الاستبداد ←	التقاليد البالية	اجتماعي ثقافي
الاستبداد ←	التعصب الديني	اجتماعي ثقافي
الاستبداد ←	هدم الأخلاق الشريفة	اجتماعي ثقافي
الاستبداد ←	الفرقة والفساد	سياسي اجتماعي
الاستبداد ←	الحجر على الحريات	سياسي اجتماعي ثقافي

تميز هذا الجدول بتداخل دلالات الخطاب وهو أمر طبيعي وذلك لشمولية الإصلاح لواقع الرقعة المعرفية كما هي في تجربة الرشيد، ولأن مقصدية التحرر من واقع الاستبداد يشمل الحقول الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يمكن أن تكون موقفاً

حضارياً أو أن تكون هي مفردات الواقع الحضاري الذي تطمح حركة الاصلاح إلى بنائه وتقدمه .

ومن هنا يتضح أن الاستبداد قد ولد كل الصفات السلبية بحيث تكون العلاقة بين الاستبداد وبين صلاته الواردة في السياقات المختلفة علاقة تعاضد واندماج مما يؤسس وحدة عضوية بين الاستبداد الجائر وبين سياقاته وهي علاقات متبادلة بمعنى أن الاستبداد يولد ما يكرسه ويدميم أجله، بينما يأتي الاصلاح والعلم ليولدا سلسلة من الأوصاف والأفعال الإيجابية بحيث تقضي على الاستبداد أو تخفف من جوهر وحدته، وتأتي سياقات الاصلاح والعلم محملة بهذه الشحنة الضدية للاستبداد والجهل وإليك هذه العينة المختارة:

### الاصلاح

الاصلاح	←	الأمن والدعة
الاصلاح	←	العز والجاه
الاصلاح	←	نشر العلم
الاصلاح	←	تشجيع الشباب المتعلم
الاصلاح	←	التمتع بالحرية
الاصلاح	←	تطهير البلاد من الفساد
الاصلاح	←	الوحدة
الاصلاح	←	التخلي عن التقاليد البالية

### العلم

العلم	←	سيف يحز عنق الظلم
العلم	←	خصم للظلم
العلم	←	عدو للاستبداد
العلم	←	يغرس الحرية

العلم	←	يعلم الناس ما يجهلون
العلم	←	معول يهد به صرح الاستبداد
العلم	←	من ينشره يكون له مقام محترم
العلم	←	من ينشره تكون له محبة تسكن الأفئدة
العلم	←	يكون لمن ينشره حق مقدس

ومن هنا تنشأ المهمة الأساسية عند الرشيد المصلح ، وهي إيقاظ الشعب وتوضيح أسباب بؤسه وتحلفه . ونستنتج أن طريق التهيئة للخلاص عنده تكمن في ثلاثة محاور تتداخل دلالات خطابها بحيث نلتمسها في حديث الرشيد عن الاستبداد وإن لم تلق هذه المحاور اهتماماً كبيراً لتطويرها ، وتدور هذه المحاور كما نستنتجها ضمناً فيما يلي :

أولاً: الإصلاح الديني ، حيث يعد الدين من الطرق الأساسية المؤدية إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، ومن ثم ذم التعصب ودعا إلى الوحدة التي فكك عراها المتعصبون والمدلسون كما يسميهم وكان حماسه واضحاً للشيخ محمد عبده ورسيد رضا ويعدهما أساطين الإسلام ، وأقطاب الإصلاح ولذلك تكمن أهمية ما كتبه الرشيد في كونه قناة أساسية لتغلغل حركة الإصلاح في منطقة الخليج .

ثانياً: العمل التنويري التربوي<sup>(٢٥)</sup> لمحاربة الجهل وعوائد الاستبداد الثقافي والسياسي والاجتماعي ، وذلك من خلال كل الصفات الإيجابية التي يضيفها الرشيد على العلم ، مما يؤدي إلى تنفيذ الإصلاحات . على أن الحكام المستبدين «لوامعنوا النظر فيما يجنون بنشر العلم من الفوائد المادية والأدبية التي تفوق ما يجنون من ثمار ظلمهم واستبدادهم لجعلوا العلم نصب أعينهم ، وأعطوه اهتمامهم الكبير ، ولغلوا أيديهم عن الجور والحيف» .

وكان نقد الرشيد شديداً للحكام الذين تخاذلوا عن نشر العلم ، وحمدوا في تنفيذ الإصلاحات ، كما كانت مقاومته شديدة لأولئك الذين يعرضون بنهضة

الكويت ومدارسها، وينفرون من الكتب العصرية وأربابها، ومطالعة الصحف بجميع أنواعها، ويرى أن منع ذلك والتنكر له إنما هو من الدين زور وافتراء، ثم أشاد بالحركة الفكرية والعلمية في الكويت وأسدى عظيم المنة لرجالها، والبيوتات التي احتضنتها وقدمت العون لها.

ثالثاً: تنفيذ بعض الاصلاحات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وإن كانت هذه الناحية لم تلق من الرشيد تطويراً كافياً، إلا أنه كان يراها من مميزات الحكم والحاكم فهو يرى أن من موجبات الانتقاد لسياسة أكثر الحكام هو جهودهم عن الاصلاح، وعدم الاهتمام بنشر العلم، وتغافلهم عن تطهير البلاد من الفساد، كما أنه يرى أن من مميزات عهد الشيخ (أحمد الجابر) نشره العلم وتشجيعه الشباب المتعلم، والحرية التي تمتع بها الكويتيون، وتأسيس مجلس للنظر في شئون البلاد والاصلاح الاجتماعي والعمراني.

لقد حرص الرشيد على أن يعرف بمظاهر الاصلاح التي عمت العالم العربي وذلك من خلال محاولات التطبيق التي أرادها للكويت والخليج، وبسط توجهاته على الاتجاهين الموجودين في البيئة الخليجية فلجأ إلى المقارنة والتمييز بين أولئك المتعصبين للقديم والجامدين عن الاصلاح، وأولئك الذين يسعون لنهضة الكويت وينفذون مظاهر الاصلاح ليسهل استيعاب القراء للاتجاهين والتمييز بينهما وليكسب الاصلاح أنصاره ودعائه، وتعزيزاً لما يؤمن به الرشيد من أن الاصلاح حركة لازمة لاستمرار الحياة في كل زمان، وأن العلم والتقدم ليسا حكراً على فئة دون أخرى، ولا مزية لوقت على آخر.

#### د - الاصلاح اللغوي

بالرغم من أن غرض الرشيد المهم هو التقدم الحضاري في الكويت فإن طبيعة اللغة في الكويت قد شغلته، وأخذت جزءاً من حيز تفكيره في الاصلاح، وإن كان راعى النظام اللغوي ولم يفكر في تغييره بل حاول أن يقيم اصلاح اللغة على معالجة الخلل الذي تعرضت له اللغة في الكويت والخليج، وكأنه أراد بمحاولته أن يفصح اللغة العامة في بلده فيقدم بذلك ما يفيد المبتدئ والمتنهي كما يقول.

وقد اتجه في اصلاحه اللغوي إلى البحث عن :

أ - مجال الاتفاق بين العامية والفصحى .

ب - مجال الاختلاف بين العامية والفصحى على المستوى النحوي والصرفي والصوتي .

ج - البحث عن الدخيل من الكلمات الهندية والفارسية والانجليزية الذي يوسع مجال الخلاف بين العامية والفصحى ، والرغبة في تعريب ذلك الدخيل . وفي اطار هدفه لتفصيح العامية وبناء الرصيد اللغوي ذي الأبعاد العقدية اتجه إلى ما يلي :

أ - معالجة الواقع اللغوي في بيئته ، ودراستها من زواياها المعجمية والنحوية والصرفية .

ب - تجريد المقول من كلامهم من أجل ضبط رصيد لغوي على مستوى الكويت والخليج .

ج - تفصيح المقول فإن كانت الكلمة دارجة فصحها وإن كانت دخيلة عربها .

د - اتخاذ اللغة الفصحى لغة نموذجية للاصلاح والتقدم الحضاري لكي تكون الوسيلة الأساسية في التخاطب والكتابة بأبعادها العقدية والحضارية .

لقد اهتم الرشيد بالواقع اللغوي للكويتيين الذي يقوم على الثنائية والتي تطلق (السنية) على وجود لغتين أحدهما رسمية والأخرى عملية مشتقة تاريخياً من الأولى ولكنها أصبحت تختلف في أنظمتها الصرفية والنحوية والصوتية والمعجمية ، ومن ثم كان هدف الرشيد اصلاح الخلل في نظام التوصيل الذي يعد إصلاحه مهماً لتقبل الاتجاهات الإصلاحية الدينية والحضارية ، وكذلك تحرير المقول من الازدواجية بين الفصحى والدخيل من الألفاظ الأجنبية .

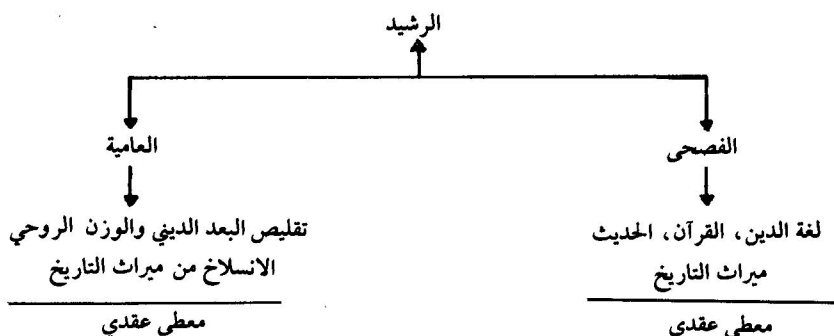
إن لتوحيد الرصيد اللغوي وضبطه عند الرشيد أبعاداً عقدية وحضارية ، فاللغة عنده أساس القرآن ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك شملها منهجه في الاصلاح ، لأن من مستلزمات الاصلاح الديني اصلاح وسائله وأدواته فلا جرم أنه أفرد لها باباً خاصاً في بحوث مجلته ، فيأتي الحرص على اللغة هنا من جهة

الحرص على الدين، يقول الرشيد<sup>(٢٦)</sup> وسيدور البحث في هذا الباب على أمور أربعة (أحدها) ما يظن أنه عامي من كلامهم وهو عربي استعملته العرب قبلهم، ولا بد في هذا من نقل عبارات أهل اللغة التي تؤيد ما قلنا. (الثاني) ما هو عربي ولكن دخله شيء من التحريف، وسنرد هذا إلى أصله، ونشير إلى وجه التحريف، الذي أخرجه من دائرة الفصحى (الثالث) الدخيل، وهو ما في لغتهم من الألفاظ الأجنبية كالفارسية والهندية والانجليزية وغيرها (الرابع) شيء من القواعد المطردة التي يستعملونها في كلامهم.

كانت مجلة (الكويت) ترفع لواء الفصحى ضد العامية التي وجدت لها أنصاراً في بعض البلاد العربية، ومن ثم سعى الرشيد إلى اصلاح لغة المقول والمكتوب، فكانت الدعوة إلى العامية وتقديمها على الفصحى تثير من الرشيد الغيرة، فنراه يقدمها حجة ضد انصار الجديد ورمزاً لتطرفهم، وناصرت المجلة (مصطفى صادق الرافعي) في الخصومة التي دارت بينه وبين (سلامة موسى) وبذلك يدخل الجديد الذي يدعيه هؤلاء منطقة السلب عند الرشيد، لأن الجديد عنده يهتريء بالركاكة والتحلل من قيود الواجبات والانسلاخ من ميراث التاريخ.

إن هذه الأمور التي يدور عليها البحث في باب اللغة عند الرشيد إنما هي أسس لمعالجة الواقع اللغوي، واتخاذ الفصحى لغة نموذجية وتنقيتها من الشوائب وتحرير وسائلها، وذلك عن طريق وصف الواقع اللغوي، ودراسته وضبط معايير اصلاح الخلل وتمكين الكويتيين من تعلم الفصحى، وتعزيز هذا التعلم من خلال تقويم الواقع اللغوي، بحيث نستطيع أن نرى شمولية المنهج الاصلاحى. لذلك فإن اهتمام الرشيد بتخصيص باب للغة في مجلته يخرج عن كونه موضوعاً للبحث ويعطي الاحساس بتكامل الرؤية والموقف من مختلف القضايا، فالرشيد لا يقف موقف الخصومة من العامية إلا إذا طرحت في إطار القضايا التي تهدد الفصحى برباطها العقدي في محاولة لعزل ميراث التاريخ عن الحياة الحاضرة، ولذلك نرى الرشيد يقدمها حجة ضد أنصار الجديد لأنها تكون قد دخلت في إطار القضايا التي يتخذ إزاءها موقفاً إصلاحياً عاماً.

## موقف الخصومة من العامية عند الرشيد



### ٦ - المنهج الاصلاحى وأشكال الخطاب

يعد الخطاب الرشيدي تعبيراً عن موقف متفتح تواق للتحرر من إطار الاستبداد الثقافي المتمثل في التقاليد والمؤسسات الثقافية الجامدة، وقد أدرك الرشيد أن البيئة الثقافية في الكويت لم تكن على وعي بالأسئلة العصرية، وليس لها القدرة على التفاعل مع واقع الثقافة العصرية. وقد حكم بسلبية المنهج القديم (كما يسميه) المتحكم في البيئة الثقافية الكويتية وأدرك أن منهج الاصلاح هو القادر على ذلك التفاعل النقدي الحر، ومن ثم كانت دعوته واضحة للإصلاح الشامل. وقد تضافرت في خطابه تلك المقولتان (ثمار الاصلاح اليانعة) و (التجديد العصري النافع) وتشملان (المدارس، والأندية، والجرائد والمجلات، والمكتبة، والبعثات العلمية، والعلوم العصرية، والمحاضرات، والمقالات، وتقديم نماذج من الأدب العصري في الكويت، وتزكية أدب الشباب، والأفكار الحرة، والكتب العصرية، والآراء الحية) وهي مكونات الأجهزة الثقافية العصرية في بيئته، ومقومات حركة الحاضر الثقافي «حركة من يقارب بين الأمس يجد بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً لا يحسن التغاضي عنه، إنه انقلاب مدهش» (٢٧).

على أن ما يثير الانتباه في الخطاب الرشيدي هو أن الصفحات التي يسط فيها حوار الاصلاحى تتميز بدقة خاصة على صعيد اللغة، وصياغة طريقة الاستنتاج

والتأويل، وبعد ذلك نموذجاً لمميزات لغة خطابه، مما يدعو إلى القول أنه أقلع عن أسلوب السجع الذي كان يسيطر على الكتابة قبله<sup>(٢٨)</sup> فهو يحرص في خطابه الاصلاحى على الاقتصاد في التعبير مما يجعل لغته وظيفية حتى عندما يلجأ إلى الاستعانة بالصورة، فكانت اللغة عنده بعداً مهماً لصياغة موقف التفتح والتحرر، ولا سيما بعد أن أصبحت المجالات الاجتماعية والسياسية موضوعاً للكتابة، ومن ثم حملت مجلة (الكويت) على عاتقها ذلك الاتجاه الجديد في التعبير عن القضايا الاصلاحية. ونجد في هذا الصدد رسالة موجهة إلى مجلة (الكويت) يقترح فيها كاتبها أن يكون للمجلة عناية خاصة بالابحاث الاجتماعية، وهي أهم ما ينبغي أن تصرف إليه الهمم اليوم، فقد أصبحت الشغل الشاغل للعالم أجمع<sup>(٢٩)</sup> فكان أن حل النثر مسئوليات اصلاحية عصرية وجدت شكلها التعبيري في المقالة التي ظهرت مع أول مجلة في الخليج (وهي مجلة الكويت) مما يدل على ظهور أسلوب تعبيري جديد يهد لظهور أشكال تعبيرية أخرى.

لقد كان الاصلاح هو الروح الذي ينطلق منه الرشيد في خطابه لما فيه من تجديد للحياة، وتحرير للإنسان من مظاهر الاستبداد المختلفة. فالرشيد يميل في أسلوبه إلى ايراد الحجة واثيراها على العاطفة في مجال الإصلاح ومعطيات التجديد النافع. ويمتاز أسلوبه في هذا الجانب بالتنظيم الذي يتفق مع الحوار والنقاش ليصل من خلال العرض إلى ما يتوخى التدليل عليه، وتتميز عباراته في هذا الجانب بالوضوح وحسن الاختيار مبتعداً عن الإغراب قاصداً المعنى الذي يتفق وجلال الهدف الذي يسعى إليه.

يقول الرشيد في حديثه عن القديم والجديد: «في القديم كما في الجديد محاسن ومساويء، وفي القديم كما في الجديد فضائل وذنائل، وفي ساحة كل منهما كمال ونقص، إذاً فمن التعصب الذي لا يحتمل أن يرفض أحدهما بكل ما فيه، ويؤخذ الثاني بأجمعه، لا شيء إلا لأن هذا جديد وذاك قديم، ولا أحسب من يرفع عقيرته بهذا إلا قد سد على نفسه الطرق، وهد حصن مذهبه بيده، وأعطى خصمه سيفاً يحز به عنقه.



وما دما نعرف أن الحكيم هو من لا ينظر إلا إلى ما يبقيه العمل من أثر، غير مهتد بعده بمصدره ومنشأه، نعلم جيداً مبلغ الخطأ الذي سلكه الفريقان، ومبلغ ما أتوه من تحقيق، ومقدار انصافهم الذي له يدعون».

يوضح هذا الأسلوب في عناصره صورة القديم والجديد كما يتجهجاها الرشيد ومسلكه الفكري الذي يرتحل إلى قضية التجاوز بالمنهج الاصلاحى الذي يجمع بين ايجابيات القديم والجديد، فالموقف هنا عقلي، لأن العقل يقيد ما حررته العاطفة في مجال الاصلاح، والمعنى منطقي، يقوم على النقد والمقارنة بتلك الجمل القصيرة القائمة على التقابل الاسلوبى والفكري فتكون الدلالة رديفة التحليل اللغوي ومن ثم كان أسلوب المقارنة يعوض عن أسلوب التفضيل المطلق، وأسلوب التحقيق يغني عن أسلوب التمجيد والانتشاء. وكان أسلوب المقابلة هو حجر الزاوية في هذا الكلام الذي يضفي على المعالجة إطاراً من الحركة الذهنية، وتؤكد هذه النتيجة المادة اللغوية المستخدمة في مثل هذه المقالات التي يعرض فيها الدفاع عن قضايا الإصلاح الديني والاجتماعي، ومن ثم كان أسلوب المقابلة والمناقشة الحوارية خير أسلوب أدائي ينسجم مع تلك الغاية التي تتحرك من عقل مشغول بالاقناع، فهو أسلوب (مدني) غايته إصلاحية، وينطلق من طبيعة متفتحة تميل إلى أسلوب النقاش المنطقي (DIALECTICAL) (٣٠).

أما إذا انتقل إلى التعبير عن إحساسه وعاطفته كالأشادة بموقف ما، فإنه يتصنع تصنعاً مقبولاً، ويضفي على أسلوبه شيئاً من جماليات التعبير، ولا يغفل تلك العفوية التي تنطلق مع احساسه ومشاعره. فيقول عن الشيخ (عبدالله السالم الصباح): «أي حديث يسرك أيها القاريء عن الأمير الخير، أحدث إطلالته وهي كالشمس النيرة في الفضاء، سخاء وكرم وحلم وعقل، ومباشرة للجلس بما يؤنسه، وأخذ بعضد الضعيف المظلوم، وتعطف على الأقارب والأصحاب، وبذل في سبيل العلوم والمعارف، أم حديث مواهبه النادرة التي لبس منها تاجاً وضاء أصبح منه كعلم في رأسه نار، ذكاء غريب، وفطنة وقادة، وفكر في العضلات سديد، ونظر في عواقب الأمور بعيد، وأدب غض يحكي الروض باكره الحيا...».

لقد استأثرت بالتركيب نبرة الإشادة، مما أدى إلى تضافر النبرة الأسلوبية والنبرة الدلالية في موقف الإشادة، ويتضح من المظهر اللغوي أن الصياغة جاءت في قالب نحوي متناسق، يجلي الجهد الأسلوبي في الابتداء بالنكرات العاملة التي تكثف نبرة التمجيد، واثبات التفوق. كما اعتمد الأسلوب أيضاً على امكانيات تضخيم السياق بصيغ مختلفة تحقق الحد الأقصى للإشادة. فهذا الأسلوب بمعطياته قد حررته العاطفة ولم يكن للمنطق القائم على الجدل والنقاش منزع فيه، ومن ثم جاءت المادة اللغوية تستلهم سجلات معاني التمجيد والإشادة، واكتسب المقام طاقة اسلوبية تغذي صفات التزكية واثبات الفضل والتعلق. ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك طبيعة لغته في خطابه الاصلاحى وذلك في الأمور الآتية:

١ - النزعة الاصلاحية وتحبذ الحوار، يتضح ذلك من مناقشته لمذهبي القديم والجديد ومخالفته للمتعصبين والمفرطين من الجانبين.

٢ - الجرأة في ابداء الرأي، ويأتي الأسلوب هنا قوياً يعتمد الأسس المنطقية في العرض وتوخي النتيجة المناسبة.

٣ - الإيضاح بدلاً من الإيحاء.

٤ - ويأتي أسلوب الرشيد محملاً ببعض الألفاظ الترجيحية التي يتحرى فيها الكاتب الحقيقة محاولاً الابتعاد عن الخطأ مثل (قد يكون) (إن لم يكن هذا ولا ذاك) (لا أخاله) (نكاد نرجع).

٥ - تشعب الجمل والمعاني التي تتضافر لتجلو الفكرة المقصودة.

٦ - تثقيف العبارة: وهي خاصة تبدو في مقالاته ومناقشاته، فهو ينتقي الألفاظ والتركيب دون تصنع فيأتي الطباق مثلاً في صورة سيرة يحرص فيها على التماثل البنائي كقوله: محاسن مساويء، قديم جديد، فضائل رذائل، كمال نقص، يرفض يؤخذ.

لم يكن لمجلة (الكويت) بأهدافها الاصلاحية أن تنشر من أشكال الخطاب إلا

ما يلائم رؤيتها في تناول القضايا الاجتماعية، في حدود الالتزام بالمنهج الاصلاحي . وقد كان من مستلزمات هذا المنهج عند الرشيد تشجيع كل ما يؤدي إلى التحرر من التقاليد والخرافات التي لا تتلاءم ونقاء الدين الاسلامي وإنما تشجع كل ما يبعث النفوس على التهذيب الذي أقره العقل المتفق مع النقل والاجماع، ومن ثم يتكثف المنهج الاصلاحي من خلال الأشكال الكتابية المختلفة سواء بالمقال أو بالشكل القصصي أو بالشعر، ولذلك قدم لما ينشر في مجلته مقرظاً ما دام يتفق ومعطيات رؤيته الاصلاحية، فحينما نشر (خالد الفرج) الشاعر الكويتي قصته (منيرة)<sup>(٣١)</sup> أشاد بها لأنها تعالج قضية التقاليد المتحجرة، وافتتان العامة المخدوعين ببعض المدعين من رجال الدين الذين ينشرون بين الناس الخزعبلات، وأحدثت هذه القصة في نفس الرشيد أملاً وانتصاراً، لأنه كثيراً ما عانى من هؤلاء المتعلمين .

ومع أننا لا نجد لهذا الشكل القصصي ما يتلوه من نماذج بسبب غرابة هذا الفن على جمهور القراء في الخليج فإننا نرى أنفسنا في حل من القول بأن منهج الرشيد لم يكن ليضيق بالأشكال الفنية المختلفة ما دامت ترفد الرؤية الاصلاحية ذات المرونة المنهجية عنده، ولعل القدر المشترك في هذه الرؤية هو العودة إلى واقع الحياة وارتباط المثقف بقضايا أمته وعصره من فقر وجهل وتأخر، غير أن معالجة مثل هذه الأمور فنياً اتسم بالمباشرة والوعظية في سياق الطرح الاجتماعي .

ولعل هذا بدوره يؤدي بنا إلى تناول مفهوم الفن ووظيفته في مجلة الرشيد، وإن كان مفهوم الفن لا يكاد يتجرد من أساسه الوظيفي . فالفن هنا منظور إليه على مستوى دواعي المرحلة وظروفها، ومستوى المنطق الداخلي في منهجية الإصلاح، فوظيفة الكتابة تتأتى من سلطة المتكلم على السامع وتبليغه الهدف والغاية في إطار الوظيفة الإيديولوجية .

فالمجلة لم تخرج بالشعر عن المفهوم الذي يقترب مما نطلق عليه (المفهوم الالتزامي) بحيث تنشر ما يوافق اتجاهها الاصلاحي، وذلك تبعاً لطبيعة المرحلة وثقافة القارئ عليها والهدف من إصدارها والطابع الغالب على موضوعاتها وثقافة

جمهور المتلقين، فالشعر عندهم هو ما يرمي إلى مقاصد سامية وغايات شريفة، ويتوجه الاهتمام إلى المعنى الذي يستوي فيه المنشور والمنظوم فهذا صقر الشبيب يقول: أصوغ فيك رثاء كل ضامنة أشجاء أفئدة الأفراد والزمزم أتعبت فكري في إحكامها فأنت من أئمن الكلم المنظوم ذي الخطر فالمجلة جاءت لتقوي هذا الاتجاه وتؤكد، بل هي تقدر الشعر والشاعر بضمونه وعقيدته وحينما تتناول بيت الشاعر الياس فرحات:

دع آل عيسى يعبدون لربهم عيسى وآل محمد لمحمد

تعترض على معنى البيت وتقول: إن هذا المعنى ليس له أصل صحيح في دينهم عند جمهرة أهل الرأي والفكر.

ثم تقول المجلة: وعلى كل فقد كان بودنا أن لو تنزه أصحاب مجلة الثقافة الأفاضل عن نشر هذه الأبيات الغامضة (لالياس فرحات) في مجلتهم الغراء، واستعاضوا عنها بنشر شيء من شعره العالي، الذي يرمي إلى مقاصد سامية وغايات شريفة<sup>(٣٢)</sup> ومعنى ذلك أن الرؤية النقدية تظل موالية لأيديولوجية الإصلاح، ذات المقاصد الاشادية والتعليمية بحيث تظل القيم الجمالية مرتبطة بها، فالشاعر المجدد هو الذي يخلص للمعنى ويتخذ مواقف الحكمة والارشاد فيكون الشعر ذا وظيفة اجتماعية واخلاقية يرمي إلى المنفعة والطرب معاً.

لقد كانت حركة الفكر والأدب في الخليج تستيع - في جزء كبير منها - النشاط الاصلاحى في المنطقة، ولا جرم كانت الصحافة الوجه الحي لحركة النشر في منطقة الخليج بحيث أسهمت اسهاماً كبيراً في وجود الفنون الحديثة التي ارتبط وجودها بالإثبات النصي (الكتابة) التي ترعرعت مع وجود الصحافة في المنطقة.

ونخلص إلى القول بأن الرشيد قد استن في مضمار التعامل مع بيئته وواقعه طريقاً اصلاًحياً جديراً بالاعتبار، فكان خطابه قابلاً لاستخلاص مجموعة من العناصر الإصلاحية الجديدة على الكتابة في منطقة الخليج، كما أن جذور الأسئلة التي انطلق منها هذا الخطاب في ملمحها الحضاري ما زالت قائمة وإن اختلفت صياغتها

والحلول التي تتصدى لها تبعاً لطبيعة المرحلة. غير أن الفكر الإصلاحي بأجمعه قد واجه صعوبة المصالحة بين الماضي والحاضر، ذلك أن منطق القديم الحي أو الماضي الحي ظل هو المنطلق الأساسي في تبني كل ما هو جديد، والتسليم بأن الجديد لا بد أن يشاد على أساس من الثوابت المعرفية القديمة الحية. ومن ثم نرى أن الخطاب الرشدي كان قناة أساسية في تغلغل الأفكار الإصلاحية التي اسهمت في تغيير الموقع الاجتماعي والثقافي لهذه المنطقة.

## الهوامش

- ( ١ ) يتكون القطاع الاجتماعي من الأنساق الاقتصادية والعائلية والسياسية والدينية، كما يتكون القطاع الفكري الرمزي من اللغة والفنون والقيم والمعتقدات وغيرها، ويطلق أحياناً على هذين القطاعين مصطلح (الثقافة غير المادية).
- ( ٢ ) أنظر في ذلك تحفة المستفيد في القديم والجديد لمحمد بن عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر في مواضع متفرقة، وكذلك حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ١٢٤ ط، خامسة، التأليف والترجمة والنشر. وكذلك (أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين) للشيخ البحراني في مواضع متفرقة، وكذلك (أعيان الشيعة) مواضع متفرقة (وسبايك المسجد) لعثمان بن سند البصري في مواضع متفرقة.
- ( ٣ ) أنظر ترجمة (محمد بن فيروز) في كتاب (سبايك المسجد) لعثمان بن سند البصري المتوفى ١٢٤٢هـ، مطبعة البيان، بمبي ١٣١٥هـ وقصة التعليم في الكويت ص ٢٢ عبدالله النوري، وكذلك تطوّر التعليم في الكويت ص ١٦ فوزية العبد الغفور.
- ( ٤ ) تدخل في المتغيرات الثقافية جميع العوامل التي تلعب دوراً في الانتشار الثقافي والتغير الثقافي مما يؤدي إلى عمليات التثقف في مجتمع ما، بمعنى ما تؤدي هذه المتغيرات من عمليات إضافة أو احلال أو رفض وغير ذلك.
- ( ٥ ) يمكن لمتتبع الحياة الفكرية في الكويت والبحرين أن يلحظ مظاهر التفتح على البيئات الخارجية من خلال ما أورده السيد (رشيد رضا) في (المنار) عن اتصاله ببعض التجار الكويتيين، وكذلك ما ذكره الشيخ (حافظ وهبة) في كتابه (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ومناصرة جريدة (الشورى) للحركة الإصلاحية في البحرين والكويت ونشرها بعض المقالات لطلاب الإصلاح في البلدين منذ سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٩، ومناصرة جريدة (الأخبار) لأمين الرافي للحركة السياسية في البحرين منذ سنة ١٩٢١ - ١٩٢٤.
- ( ٦ ) انظر تفصيل ذلك في كتاب (أدباء الكويت في قرنين) لخالد سعود الزيد، ج ١ وكذلك عمر رضا كحالة (معجم المؤلفين) ج ٥ ص ٢٤١.
- ( ٧ ) خالد سعود الزيد (السابق) ج ١.

- (٨) كان وكيل (المنار) في الكويت هو السيد سليمان العدساني انظر، المنار ج ٩ م ١٧، ١٩١٤.
- (٩) المنار ج ٣ م ١٥، ١٩١٢، وكذلك ج ١ م ٢٤، ١٩٢٤، كذلك انظر ما يقوله حافظ وهبة في شأن المدرسة المباركية حين قدومه إلى الكويت، خمسون عاماً في جزيرة العرب، ص ١٢ ط أولى ١٩٦٠ البايي الحلبي.
- (١٠) المنار ج ١١ م ١٥ ص ٨٧٨، ١٩١٢.
- (١١) تاريخ الكويت، للشيخ عبدالعزيز الرشيد، مقدمة المؤلف ص ١٩ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، د، ت.
- (١٢) السابق ص ٢٠.
- (١٣) السابق ص ٢١.
- (١٤) مجلة الكويت ج ١ رمضان ١٣٤٦ هـ م.
- (١٥) انظر ما نقله ابن القيم في (اعلام الموقعين) ج ٢ ص ٢٤٨، مكتبة الكليات الأزهرية. يقول ابن القيم: ولم يزل أئمة الاسلام على تقديم الكتاب على السنة والسنة على الإجماع، وجعل الإجماع في المرتبة الثالثة. قال الشافعي: الحجة كتاب الله وسنة رسوله واتفاق الأئمة، وقال في كتاب اختلافه مع مالك: والعلم طبقات، الأولى الكتاب، والسنة الثانية، ثم الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة. الخ.
- (١٦) تاريخ الكويت ص ٢٠.
- (١٧) انظر

Albert Hourani; Arabic thought in the liberal age 1798-1931 P.144. Oxford University

press 1962 وما بعدها وذلك من خلال ما يهدف إليه محمد عبده من التوفيق بين الاسلام وبين معطيات الفكر الحديث.

- (١٨) مجلة الكويت ج ٦ صفر ١٠ م.
- (١٩) Ibid. P. 147 وكذلك الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ص ٢٤٤ ز، ل، ليفين، ترجمة بشير السباعي ط أولى ١٩٧٨، دار ابن خلدون.
- (٢٠) مجلة الكويت ج ٦ صفر ١٠ م.
- (٢١) السابق.
- (٢٢) المراجع أو الصلات، هي مفردات كما ترد في السياقات المرتبطة بالمفهوم المدروس من حيث إنها مواصفات له، أو مفردات مشاركة أو مناهضة أو أفعال يقوم بها أو تقع عليه.
- (٢٣) تاريخ الكويت ص ٢٦٧.
- (٢٤) مجلة الكويت ج ٤، ٥ ربيع ثان وجمادى الأولى ١٣٤٨ م.
- (٢٥) شابت الإصلاح الاسلامي بعض العناصر التنويرية وإن كانت نقطة انطلاق الإصلاح غير نقطة انطلاق التنوير. كما ورد مفهوم الاستبداد بسياقاته المختلفة في هذه الصفحات من تاريخ الكويت التي نذكرها على سبيل المثال لا الحصر ص ٧٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٨٠.
- (٢٦) مجلة الكويت ج ٩ جمادى الأولى ١٠ م.
- (٢٧) تاريخ الكويت ٢٨٢.

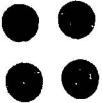
(٢٨) يتضح ذلك من استعراضنا لبعض المؤلفات السائدة قبله في منطقة الخليج مثل كتاب «سبايك المسجد، في أخبار أحمد نجل الأسعد» لعشيان بن سند البصري المتوفى سنة ١٢٤٢هـ وكتاب «زاد المجتهدين في شرح بلغة المحدثين» للشيخ أحمد آل طعان المتوفى سنة ١٣١٥هـ وكتاب «أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين» للشيخ علي البلادي البحراني المتوفى سنة ١٣٤٠هـ.

(٢٩) مجلة الكويت ج ٤، ٥ ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٤٨م.

(٣٠) هناك نوعان من الأساليب التي تعنى بالرأي والنتيجة، أسلوب فرض الرأي والنتيجة وهو أسلوب جدلي يطلق عليه (ERISTIC) وأسلوب النقاش المنطقي الذي يورد الحجة ويستند على الأسس المنطقية ويطلق عليه (DIALECTICAL). أما لقب (ERISTIC) فقد أعطي لأهل مدرسة (ميجارا) في الفلسفة اليونانية القديمة وهي مدرسة أنشأها أفليدس المجاري، واشتهرت بالجدل الذي يستند إلى السفسطة.

(٣١) انظر ترجمته في أدباء الكويت في قرنين ج ١، أما قصته فقد نشرها في مجله الكويت في العدد الذي صدر في جمادى الآخرة ورجب ٢م ١٣٤٨هـ.

(٣٢) مجلة الكويت ج ٦م ١.



# وجهة نظر



## بين الطموح والواقع

د. عبده عبود  
جامعة البعث - كلية الآداب - حمص

كل المؤلفين العرب الذين كتبوا في الأدب المقارن يزعمون أن هذا العلم هام، بل خطير جداً، ولكن قل أن نجح أحد من هؤلاء في أن يقنع الناس بأهمية هذا العلم أو خطورته. فالدكتور محمد غنيمي هلال، وهو أبرز أعلام المقارنة العربية، وصاحب كتاب لم يحظ مؤلف مقارني آخر بما حظي به من سعة انتشار وتأثير، يعلن في كتابه هذا أن الأدب المقارن قد صار «علماً من علوم الآداب الحديثة، أخطرها شأنًا، وأعظمها جدوى»<sup>(١)</sup>. كما ينسب الدكتور هلال إلى الأدب المقارن رسالة «خطيرة الشأن»، تجعل من التوسع في دراسته «حاجة ماسة»<sup>(٢)</sup>. تُرى ما هي الأهمية التي يتمتع بها الأدب المقارن، وما كنه «الرسالة الخطيرة» التي تُنسب إليه؟ وهل هي رسالة خطيرة حقاً؟



## الطموح الكبير

في محاولة لتوضيح أهمية الأدب المقارن بالنسبة للوطن العربي يلاحظ الدكتور هلال أن تزايد الاهتمام بالدراسات المقارنة في الجامعات العربية منذ مطلع الستينات «يدل دلالة قاطعة على أننا بدأنا نستجيب إلى نداء الوعي القومي العربي الحديث الذي لم يكن أقوى مما هو عليه اليوم، وقد أخذ يبحث في شتى ميادين الحياة العلمية والفنية عما يدعمه»<sup>(٣)</sup>. فأهمية الأدب المقارن تنبع إذن في رأي الدكتور هلال بالطبع، من أن هذا العلم يدعم وعينا القومي، و«يغذي شخصيتنا القومية». ذلك هو الشق الأول من رسالة الأدب المقارن، كما يراها الدكتور هلال، أما الشق الثاني من تلك الرسالة فيتمثل في «الكشف عن أصالة الروح القومية في صلتها بالروح الانسانية العامة»، وذلك لأن تقويم الأدب القومي تقوياً سليماً هو أمر غير ممكن إلا بالنظر إليه في نسبته إلى التراث الأدبي الإنساني جملة<sup>(٤)</sup>. ولكن إذا دققنا في هذا القول نجد أن ما يدعو الدكتور هلال «رسالة الإنسانية» هو في واقع الأمر رسالة قومية. فالكشف عن أصالة الروح القومية «هو غاية قومية بلا ريب» وليس غاية إنسانية، اللهم إلا إذا وضعنا علامة تساوي بين القومي والانساني، واعتبرنا الكلمة الثانية مرادفة للأولى وهذا مالا يقبل به أحد، ولا حتى الدكتور هلال. ولذا يمكننا القول إن الدكتور هلال ينيط بالأدب المقارن رسالة قومية بالدرجة الأولى، وأن الرسالة الإنسانية التي يتحدث عنها لا تتعدى كونها وسيلة تخدم الرسالة القومية.

فكيف يؤدي الأدب المقارن رسالته في تدعيم الوعي القومي وتغذية الشخصية القومية؟ لا يقدم الدكتور هلال إجابة موحدة وواضحة ومقنعة عن هذا السؤال. فهو يرى تارة أن «أقوى وسيلة لدعم نداء الوعي القومي هي أن يتصل بالتيارات الفكرية والفنية العالمية اتصالاً يغذي به أصالته، ويواصل سيره في مجالات التطوير والتجديد»<sup>(٥)</sup>. ولكن من الأفضل لنا أن نستبدل هنا عبارة «وعي قومي» بعبارة «أدب قومي»، لأن الأدب هو ما يتجدد عبر اتصاله بالتيارات الفكرية والفنية العالمية. على أية حال فإن الدكتور هلال ما يلبث أن يتحدث عن أدوار قومية أخرى للأدب المقارن، مثل «إظهار مقومات قوميتنا في الحاضر»، وتوضيح «مدى امتداد

جهودنا الفنية والفكرية في التراث الأدبي العالمي» وجلاء «نواحي الأصالة في الأدب القومي»<sup>(٦)</sup>. مما تقدّم نستنتج :

١ - أنّ الدكتور هلال يسعى إلى إيكال دور هامّ ورسالة خطيرة إلى الأدب المقارن.

٢ - أنّه لم يحدّد تلك الرسالة بالدقة المطلوبة، بل تحدّث عنها بطريقة فيها الكثير من المبالغة، وذلك بغرض إثارة الاهتمام بالأدب المقارن.

٣ - أنّ هذه الرسالة ذات طبيعة قومية في الدرجة الأولى. ويدولنا أنّ تحديد طبيعة تلك الرسالة على هذا الشكل يرجع إلى أسباب عديدة، من أبرزها تأثر الدكتور هلال بالمدّ القومي الذي عمّ الوطن العربي في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات، أي الفترة التي أعدّ فيها الدكتور هلال الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه «الأدب المقارن»، ورغبة المؤلف في إظهار الأدب المقارن في مظهر علم يماشي ذلك المدّ ويخدمه. فمن الملاحظ أنّ الدكتور هلال لم يؤكد على قومية رسالة الأدب القومي في مقدمة الطبعة الأولى التي ترجع إلى عام ١٩٥٣، بل في مقدمة الطبعة الثالثة التي ترجع إلى عام ١٩٦٢.

على أية حال فإنّ الرسالة القومية الخطيرة، التي نسبها الدكتور هلال لم تمنعه من أن ينسب إلى هذا العلم رسالة ليست على هذه الدرجة من الخطورة، وإن كانت أقرب إلى طبيعته وإمكانياته الواقعية. وتتمثل هذه الرسالة في إغناء النقد الأدبي والدراسات الأدبية، فالأدب المقارن، في رأي الدكتور هلال، مهم في الدراسات الأدبية، وضروري للنقد الحديث لأنه «مكمل لتاريخ الأدب وأساس جديد للدراسات النقدية»، وهذا ما منحه أهمية «لاتقل عن أهمية النقد الحديث، بل أصبحت نتائج بحوثه عماد الأدب والنقد الحديث معاً». حتى ليستّمى النقد الحديث النقد المقارن. إشارة إلى أهمية البحوث المقارنة في جلاء جوانبه واستكمالها<sup>(٧)</sup>.

إنّ ما يجعل الأدب المقارن «جوهرية» لتاريخ الأدب والنقد في معناها الحديث، هو في رأي الدكتور هلال، أنه «يكشف عن مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومي»، وعن «جوانب تأثر الكتاب في الأدب القومي بالأدب

العالمية»<sup>(٨)</sup>، مما يعود بالفائدة على الأدب القومي، وذلك من نواح عدة:

١ - فالأدب المقارن يكشف عن جوانب وخصائص الأصالة في الأدب القومي<sup>(٩)</sup>.

٢ - وهو يتتبع حسن إفادة الكتاب والنقاد من الآداب العالمية في إغناء الأدب القومي.

٣ - وهو يوجه حركات التجديد في الأدب القومي «توجيهاً رشيداً على هدى ما تسير عليه الآداب العالمية».

قد يتساءل بعضهم هنا: ماهي الأهمية المعرفية لما يقوم به الأدب المقارن من كشف عن مصادر التيارات الفنيّة والفكرية في الأدب القومي؟ وهل الوقوف على جوانب الأصالة في الأدب القومي مهمّ إلى هذه الدرجة؟ وهل بوسع الأدب المقارن أن يوجّه حركة التجديد في الأدب القومي وجهة «رشيدة» كما يقول الدكتور هلال؟ وما هذه الوجهة؟ وما أدرانا أنها رشيدة؟ فيما يخص السؤال الأول فإنّ الإجابة عليه تتوقف على الأهمية التي يوليها المرء لمسألة الأصالة في الأدب. فمن النقاد، مثل الدكتور محمد مندور، من يعتبرها سمة أساسية لكل أدب جيد<sup>(١٠)</sup>. وهناك بالمقابل نقاد وأدباء لا يولونها كبير أهمية<sup>(١١)</sup>. وهكذا فإنّ تقدير أهمية الدور الذي يقوم به الأدب المقارن على هذا الصعيد يتوقف على موقفنا من مسألة الأصالة ومفهوماها الشديد الإشكالية. أما فيما يخصّ دور الأدب المقارن في توجيه حركة التجديد في أدبنا القومي، أو أي أدب قومي آخر، توجيهاً رشيداً، فإنّ أحداً لا يستطيع إن يمنع المقارنين من أن يطمحوا إلى لعب دور كهذا، ولكن ربما كان من المفيد في هذا السياق أن نذكرهم بأن الطموح شيء، وتحقيق ذلك الطموح عملياً شيء آخر. وفي رأينا فإنّ الفرص المتاحة للأدب المقارن كي يحقق طموحه في توجيه حركة التجديد في الأدب القومي ليست أكبر ولا أصغر من الفرص المتاحة للدراسات الأدبية والنقد الأدبي بوجه عامّ في توجيه حركة الإنتاج الأدبي. فإلى أيّ مدى يسمح الأدباء للنقاد والباحثين بأن يوجهوهم وجهة يعتبرونها «رشيدة»؟ وهل الوجهة الرشيدة في نظر الناقد أو الباحث وجهة رشيدة في نظر المنتج الأدبي أيضاً؟ في كلّ الأحوال فإنّ طموح

النقد الأدبي إلى توجيه الحركة الأدبية هو طموح مشروع، وبدونه يفقد النقد مسوغاً رئيسياً من مسوغات وجوده<sup>(١٢)</sup>.

## مفهوم الأدب المقارن

ويرتبط التوجه القومي في فهم دور الأدب المقارن ورسالته ارتباطاً وثيقاً بفهم الدكتور هلال لماهية هذا العلم، أي ما هو الأدب المقارن، وما هي مجالات بحثه وميادنها. فهو يعرف الأدب المقارن قائلاً إنه «دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كُتبت بها»<sup>(١٣)</sup>. وانطلاقاً من هذا التعريف فإن محور البحوث المقارنة ينبغي أن يكون «الأدب القومي في صلته بالآداب العالمية، وامتداده بالتأثير فيها وإغنائها أو التأثير بها والغنى بسببها». وهذا يعني أن الدكتور هلال ينطلق من الأدب القومي إلى «الآداب العالمية»، ليعود في نهاية الجولة المقارنة إلى نقطة الانطلاق، أي إلى الأدب القومي، من أجل أن يجلو نواحي الأصالة فيه. وبالمناسبة فإن الدكتور هلال يستخدم تعبير «الآداب العالمية» بمعنى «الآداب الأجنبية»، وهو استخدم غير سليم لهذا التعبير، وذلك لأن هناك أدباً عالمياً واحداً، يتكون من جملة الآداب القومية «وعلى أية حال فإذا أردنا أن نعبر عن مفهوم الدكتور هلال للأدب المقارن بكلمات أخرى نقول: إنه العلم الذي يدرس تأثير الأدب القومي بالآداب الأجنبية وتأثيره فيها.

وانطلاقاً من فهمه المتمركز حول الأدب القومي يحدد الدكتور هلال ما يدخل في ميدان الأدب المقارن وما لا يدخل فيه. ففيه تدخل «مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر، أي كانت مظاهر التأثير والتأثر. وبعبارة أخرى فإن ميدان الأدب المقارن، في رأي الدكتور هلال هي «الصلات الدولية بين مختلف الآداب»<sup>(١٤)</sup>، فنية كانت هذه الصلات، كانتقال الأجناس الأدبية، أم مضمونية، كانتقال الموضوعات الأدبية والتيارات الفكرية.

وبحصره ميدان الأدب المقارن في العلاقات الأدبية الدولية، التي تتم من

خلال التأثير والتأثر، يخرج الدكتور هلال من دائرة هذا العلم نوعين من المقارنات الأدبية<sup>(١٥)</sup>: أولهما هي الموازنات داخل الأدب القومي الواحد، كالموازنات المعروفة في النقد العربي بين جرير والفرزدق. وأبي تمام والبحتري، والمتنبي وأبي العلاء، وحافظ وشوقي. إنَّ مقارنات كهذه هي من اختصاص مؤرخي الأدب القومي ونقاده، وبالتالي فهي «ليست من الأدب المقارن في شيء»<sup>(١٦)</sup>. وهذه مسألة لا يختلف فيها مقارنان. فميدان الأدب المقارن باعتراف الجميع، هي الظواهر التي تتعدى أدباً قومياً واحداً، أما النوع الثاني من المقارنات التي لا تعني الأدب المقارن فهي تلك الموازنات التي تعقد بين كتاب ينتمون إلى آداب قومية مختلفة، وذلك لمجرد وجود تشابه أو تقارب بينهم، ودون ما يثبت أن بينهم علاقات تأثير أو تأثر من نوع ما، كأن نقارن بين أبي العلاء المعري والشاعر الإنكليزي ميلتون، صاحب «الفردوس المفقود»، أو بين أبي العلاء وفرانز كافكا، مثلاً فعل طه حسين<sup>(١٧)</sup>. لماذا لا تدخل مقارنات كهذه في ميدان الأدب المقارن، في رأي الدكتور هلال؟ يردّ على ذلك بالقول: إنَّ الأدب المقارن لا يدخل في حساباته «مجرد عرض نصوص أو حقائق متصل بالأدب ونقده». دون أن يكون بينها صلة ما، نتج عنها توالد أو تفاعل من أي نوع كان<sup>(١٨)</sup>. فالأدب المقارن معنيّ «بشرح الحقائق عن طريق تاريخي، وكيفية انتقالها من لغة إلى أخرى، وصلة توالدها بعضها من بعض، والصفات العامة التي احتفظت بها حين انتقلت من أدب إلى آخر، ثم الألوان الخاصة التي فقدتها أو اكتسبتها بذلك الانتقال»<sup>(١٩)</sup>. وما دام الأدب المقارن «لا يقتصر على عرض الحقائق بل يشرحها شرحاً تاريخياً مدعماً بالبراهين والنصوص من الآداب التي يدرسها»<sup>(٢٠)</sup>، فمن الطبيعي أن يستبعد من ميدانه كل المقارنات التي يمكن أن تجري بين ظواهر لم تقم بينها صلة تاريخية، وذلك لأن موازنات كهذه «لا تشرح شيئاً أو تبقى غامضة لا يوضحها تاريخ». لذا فإنَّ قيمتها، في رأي الدكتور هلال، لا تتجاوز من حيث ضالتها قيمة «مجهود أستاذ في علم الأحياء ينفق وقته في شرح التقارب شكلاً ولوناً بين زهرة وحشرة»<sup>(٢١)</sup>.

يستند الدكتور هلال في قيامه بتضييق ميدان الأدب المقارن، وتحويله إلى مجرد

نوع خاص جداً من التاريخ الأدبي، أي «تاريخ العلاقات الأدبية الدولية». إلى حجة أساسية مفادها أن الدراسات المقارنة ينبغي ألا تكتفي بعرض الحقائق، بل عليها أن تفسرها تاريخياً. ومن الواضح أن الدكتور هلال ينطلق من فهم معين لما هو «تاريخي»، فهو يلحق بهذه اللفظة قوله: «مدعماً بالبراهين والنصوص من الآداب التي يدرسها»، وهذا يعني أن مفهوم الدكتور هلال «للتاريخي» يجعله يحصره في الظواهر التي تقوم بينها صلات سببية قابلة للإثبات إمبيرياً، أي بالوثائق والأدلة<sup>(٢٢)</sup>. ولكن من المفيد هنا التذكير بأن مفهوماً وضعياً إمبيرياً للتاريخ كهذا المفهوم الذي أخذه الدكتور هلال عن أساتذته الفرنسيين، ليس المفهوم الوحيد، وبالتالي نخط المقارنات التي يدعو إليها الدكتور هلال ليس النمط الوحيد المشروع. فبوسع المرء أن يقارن بين ظواهر ثقافية تنتمي إلى مجتمعات مختلفة، لم تقم بينها صلات تاريخية من النوع الذي يشترطه الدكتور هلال كي تكون المقارنة مشروعة في نظره، ومن الممكن أن يكون لتلك الموازنات قيمة علمية تتجاوز قيمة الموازنة بين «زهرة وحشرة». وفي هذه الحالة يكون مثل المقارن كمثل عالم الأحياء الذي يقارن بين أشكال ظهور الزهرة نفسها، أو الحشرة نفسها، في قارات مختلفة، مع مراعاتنا للفوارق الجوهرية بين الظواهر الثقافية والظواهر الطبيعية، وبالطبع إذا وجدت صلات بين الظواهر الأدبية التي نقارن بينها فإننا لن نتجاهل تلك الصلات، بل سنوليها اهتماماً كبيراً، لكننا لن نتخلى عن المقارنة لمجرد عدم توافر صلات كهذه. فنحن لا نرى في البرهنة على وجود علاقات تأثير وتأثر بين آداب قومية مختلفة هدفاً نهائياً للأدب المقارن. ولهذا فإننا غير مستعدين لأن نحصر اهتمامنا ومقارناتنا في تلك العلاقات. إن ما يعيننا كمقارنين هو تتبع ظاهرة أدبية معينة، فنية كانت أم مضمونية، في آداب قومية مختلفة، سواء وجدت بينها علاقات تأثير وتأثر أم لا. فدراسة ظهور جنس أو تيار أو أسلوب أدبي ما في آداب قومية متعددة، والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بين تلك الآداب فيما يتعلق بالظاهرة الأدبية المقارنة، مسألة مثيرة وذات قيمة علمية كبيرة في الحالتين: في حالة توافر علاقة أدبية وفي حالة عدم توافرها. والأدب المقارن مطالب في الحالتين بتقديم تفسيرات مقنعة لما يشته من أوجه تشابه واختلاف<sup>(٢٣)</sup>.

وأخيراً فإن فهم الأدب المقارن على هذا الشكل هو فهم أكثر انسجاماً مع التسمية المصطلحية نفسها، أي «الأدب المقارن». فالمفهوم نفسه لا يحصر المقارنات في الظواهر الأدبية التي تقوم بينها صلات تأثير وتأثر، بل يترك باب المقارنة مفتوحاً أمام كل الموازنات التي يمكن أن تقام بين الظواهر الأدبية، شريطة أن تكون هذه الموازنات مجدية وغير اعتباطية. والموازنات المجدية هي الموازنات ذات القيمة المعرفية الكبيرة، التي تساعدنا على فهم الظواهر الأدبية المقارنة وتفسيرها بصورة أفضل. ولا نظن أن أحداً يختلف مع الدكتور هلال حول ضرورة أن يبتعد الأدب المقارن عن المقارنات «التي لا تشرح شيئاً»، ولكن كيف يمكننا أن نجزم مسبقاً بأن المقارنة بين ظواهر أدبية تنتمي إلى آداب قومية مختلفة هي مقارنة عديمة الفائدة، لا لشيء إلا لأننا لم نتمكن من البرهنة بصورة تاريخية على وجود صلات تأثير وتأثر بين تلك الظواهر؟! إن مقارنات كهذه، كما برهن فيكتور جيرمونسكي ومقارنون آخرون نظرياً وتطبيقياً، قد تكون لها قيمة معرفية تفوق بكثير قيمة الموازنات المحصورة في نطاق ضيق.

وما دما قد جعلنا القيمة المعرفية للمقارنة مسوغاً وحيداً لمشروعية تلك المقارنة، فمن الضروري أن نسأل أنفسنا: ما الفائدة من عقد المقارنات والموازنات بين الآداب القومية المختلفة؟ هل تنتهي تلك الفائدة عند «تبين ما هو قومي وما هو دخيل، وتبين أهمية اللقاح الأجنبي في إخصاب الأدب القومي وتكثير ثمراته»، كما يرى الدكتور هلال؟<sup>(٢٤)</sup> أم تتجاوز فوائد البحث المقارن الفائدة الأنفة الذكر، بحيث تساعدنا في فهم الظواهر الأدبية وتفسيرها بشكل أفضل، كما يرى مقارنون آخرون، من أمثال السوفيتي فيكتور جيرمونسكي والأمريكي هنري ريمارك؟<sup>(٢٥)</sup> من ناحيتنا لم نترك مجالاً للبس في موقفنا من هذه المسألة.

### ماذا نقارن؟ وكيف؟

سؤال ماذا نقارن؟ هل نقصر المقارنة على الظواهر الأدبية التي تربطها صلات تأثير وتأثر، أم نوسع ميدان المقارنة، بحيث يشمل أيضاً كل الظواهر الأدبية التي نرى فائدة في المقارنة بينها، هو سؤال تطرقنا إليه آنفاً وحددنا موقفنا منه بوضوح. أما

السؤال الذي لم نتطرق إليه بعد فهو: كيف نقارن؟ فلا يكفي أن نعرف لماذا نقارن، وماذا نقارن، بل لا بدّ لنا من أن نعرف كيف نمارس المقارنة، وهذا هو الجانب التطبيقي في الأدب المقارن. من الناحية المبدئية يتحدّد الجواب عن هذا السؤال على ضوء مفهومنا للأدب المقارن. فإذا نظرنا إليه كعلم «يدرس مواطن التلاقي بين الآداب». فإنّ جهودنا ستتنصب بالضرورة على حالات التأثير والتأثر بين الأدب القومي والآداب الأجنبية، حيث سنقوم باستقصاء سبل وأشكال ذلك التأثير والتأثر من خلال المصادر والنصوص والوثائق الأدبية المختلفة، بهدف إثبات ذلك التأثير وتحديد نوعه ونتائجه الفكرية والفنية. وهذا هو السبيل المفضي إلى تبيين «ماهو قومي وما هو دخيل» في الأدب القومي<sup>(٢٦)</sup>. أمّا إذا رفضنا أن نحصر الأدب المقارن في دراسة العلاقات الأدبية العالمية، وتبيننا مفهوماً لا يضع على المقارنة قيداً غير قيد الجدوى المعرفية، عندئذٍ تختلف الظواهر الأدبية التي نتناولها بالبحث المقارني، وتختلف الطريقة التي نستخدمها في المقارنة، وتختلف بالتالي النتائج التي نتوصل إليها في نهاية الأمر. ولكن في كلّ الأحوال فإنّ المقارنين العرب قلّ أن قدموا نماذج يمكن للمرء أن يستخدمها في ممارسته المقارنة، وقلّ أن تصدّوا لمسألة: كيف نقارن؟ ولعلّهم اعتبروا هذه المسألة سهلة وغنية عن الشرح، متوقعين ضمناً أن يستخدم المقارن العربي ما توفّره له علوم أدبه القومي من خبرات في مجال المقارنة، مثل الموازنات التي عرفها النقد الأدبي العربي، قديمه وحديثه. أما على الصعيد التطبيقي فإنّ معظم ما أنجزه المقارنون العرب من دراسات حتى الآن فيدخل في باب بحوث التأثير والتأثر، التي ينصبّ فيها الجهد العلمي على إظهار أوجه التشابه أو التقابل أو التطابق بين أعمال أو شخصيات عربية وأخرى أجنبية، ومحاولة جلاء ذلك التقابل عن طريق البحث التاريخي. وقد شكّل هذا النوع من الأبحاث نسبة عالية من الأبحاث المقدمة إلى المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن في تموز ١٩٨٦<sup>(٢٧)</sup>.

أما المواضيع المحيية في دراسات التأثير العربية فهي: تأثر دانتي بأبي العلاء المعري، وتأثر الآداب الأوروبية بقصص ألف ليلة وليلة، وتأثير الموشح الأندلسي في الشعر الأوروبي، وتأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الأوروبي. ومن الملاحظ أنّ دراسة



علاقات التأثير والتأثر بين الأدبين العربي و الفارسي ، قد تراجعت بصورة واضحة لصالح دراسة العلاقات الأدبية بين العرب والأوروبيين . ولقد أبدينا في مداخلات متعددة قدمناها خلال المؤتمر الآنف الذكر اعتراضاً شديداً على دراسات التأثير التي تقدم بها الزملاء ، وبينما أنها تقوم على أساس نظري هش لم يعد مقبولاً ، لا سيما بعد أن قدمت نظرية التلقي الأدبي تفسيراً أفضل لما يطلق عليه تسمية ظواهر التأثير والتأثر . فدراسات التأثير تقلل من أصالة الأديب المتأثر ، وتظهره في مظهر من يقلد الأدباء الأجانب ، إن لم يكن في مظهر من يمارس السرقة الأدبية ، وذلك رغم محاولات أنصار هذا المنحى المقارني التخفيف من هذا الانطباع بالتأكيد على أنّ محور التأثير في الأدب أو الإفادة من الآداب الأخرى هو الأصالة<sup>(٢٨)</sup> . فمما لا يمكن إنكاره حقيقة أنّ بحوث التأثير تعطي الجانب المتأثر دوراً سلبياً ، إذ تضعه في موقف المنفعل لا الفاعل ، طامسة بذلك دوره الإيجابي الخلاق .

وبالمقابل فهي تعطي الأدب المؤثر دور الفاعل الإيجابي ، رغم أنّ عكس ذلك هو الصحيح في الواقع . فالأديب المتأثر إبداعياً هو من يتتقى العمل الأدبي الذي يتأثر به ، وهو الذي يستفيد إبداعياً من ذلك العمل بالصورة التي تلي حاجاته . لذلك فهو بالذات لا الموضوع ، الفاعل لا المنفعل في عملية التأثير الإبداعي ، أو بالأصح : التلقي الخلاق المنتج . كذلك فإن الجري وراء أوجه التقابل بين الطرف الأدبي المتأثر والجانب المؤثر يطمس أوجه الاختلاف والتباين ، ويحجب بالتالي مظاهر التجديد والأصالة ، ويظهر الأدب المتلقي في مظهر أدب تابع للآداب الأجنبية . فإذا كان الأدب المتلقي هو الأدب العربي فإن دراسات التأثير تنتهي إلى البرهنة على تبعيته للآداب الأوروبية ، وتضبط في التحليل النهائي في مصلحة «المركزية الأوروبية» . أما إذا كان الطرف المتأثر أدباً أوروبياً ، وكان الطرف المؤثر هو الأدب العربي ، كما هي الحال بالنسبة لقصص ألف ليلة وليلة والمقامة ورسالة الغفران والشعر الأندلسي ، فإن دراسة حالات التأثير والتأثر توظف لصالح نزعة التبجح القومي من خلال إظهار فضل العرب على الأوروبيين ، وهي نزعة واسعة الانتشار ، إطارها التاريخي هو الصراع بين الثقافة العربية المعرّضة للتغلغل والثقافة الغربية المهيمنة<sup>(٢٩)</sup> . لذا فإن

دراسات التأثير والتأثر لا تقدم شيئاً ذا قيمة معرفية كبيرة، ولا تقدّم خدمة هامة للأدب العربي أو للثقافة العربية، وذلك خلافاً لما يعتقد بعض المقارنين وعلى رأسهم الدكتور غنيمي هلال. وهذه الأسباب أيضاً دعونا لأن يستعيض الأدب المقارن العربي عن أبحاث التأثير هذه، بأبحاث تستند إلى نظرية التلقي الأدبي، ولا سيما التلقي الإبداعي المنتج، لأنها تقوم على أساس نظري أحدث وأسلم، ولأنها تعود على الأدب العربي والثقافة العربية بفائدة أكبر<sup>(٣٠)</sup>. إنها لمفارقة كبيرة حقاً أن يتمسك قسم كبير من المقارنين العرب بمنحى التأثير والتأثر، وأن يكرسوا جهودهم لدراسة تأثير فلان من الأدباء العرب بفلان من الأدباء الأجانب في وقت تخلّى فيه المقارنون الأوروبيون أنفسهم عن هذا النوع من الدراسات، وذلك بعد أن ظهرت مواضع الضعف النظري، وبنات الخلفيات الأيديولوجية لاتجاه التأثير والتأثر في الأدب المقارن<sup>(٣١)</sup>.

مهما يكن من أمر فإنّ الأدب المقارن في الوطن العربي، وبغض النظر عن المنحى الذي ينحوه، ما زال مفتقراً إلى نماذج مقارنيه ذات أسس نظرية واضحة، ومازال المقارنون العرب مطالبين بتقديم إجابات مقنعة عن سؤال: كيف نمارس المقارنة الأدبية تطبيقياً؟ فالبحوث التطبيقية التي أنجزها المقارنون العرب حتى الآن، مثل بحث «ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي»<sup>(٣٢)</sup>. لا تدل على وعي كاف لأهمية تطوير «موديلات» مقارنة قائمة على أسس نظرية واضحة.

## واقع الأدب المقارن

أخيراً لا بدّ لنا من أن نطرح على الأدب المقارن العربي سؤالاً محرجاً، ألا وهو: ماذا قدّم هذا العلم حتى الآن للنقد الأدبي وللدراسات الأدبية في الوطن العربي؟ ويؤسفنا أن يكون جوابنا عن هذا السؤال أنه لم يقدم الكثير، ولم يتمكن من أن يؤدي أكثر من جانب يسير من رسالته التي وصفها الدكتور هلال بالهامة والخطيرة. فهو لم يتمكن من النهوض بالنقد الأدبي العربي وتوجيهه، بالصورة التي طمح إليها الدكتور عبد النبي اصطياف<sup>(٣٣)</sup>. ولا تمكن من توجيه الأدب العربي الحديث «وجهة

رشيدة»، وهو ما طمح إليه الدكتور محمد غنيمي هلال. وجل ما قدّمه الأدب المقارن للنقد والأدب العربيين حتى الآن هو إلقاء الضوء على بعض جوانب علاقة هذا الأدب ببعض الآداب الأجنبية، ولا سيما بالأدب الفارسي والآداب الأوروبية. ورغم كلّ ما زعمه الدكتور هلال حول خطورة الأدب المقارن وأهميته، فقد ظلّ هذا العلم في الوطن العربي ظاهرة هامشية، وذلك لأسباب كثيرة، نذكر منها:

١ - تأخر ظهور الأفكار المقارنة في النقد الأدبي العربي، وخلو النقد العربي القديم من تلك الأفكار بصورة شبه تامة. فمن المعروف أنّ عقد الموازنات بين الأدب العربي والآداب الأجنبية لم يظهر إلّا في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي على يد رواد عصر النهضة، ثم على يد نقاد أدبيين من أمثال روجي الخالدي وقسطاكي حمصي<sup>(٣٤)</sup>.

٢ - تبعيّة الأدب المقارن الشديدة للمدرسة الفرنسية، وانسياقه وراء دراسة العلاقات الأدبية ومسائل التأثير والتأثر، التي استنفدت حتى الآن الجزء الأعظم من الجهود التطبيقية التي بذلها المقارنون العرب.

٣ - لا يدرس الأدب المقارن في الجامعات العربية إلّا على نطاق ضيق، وذلك كمادة مقررة ضمن دراسة اللغة العربية وآدابها، واللغتين الانكليزية والفرنسية وأدبهما. ففي الجامعات السورية على سبيل المثال تدرس مادة الأدب المقارن في السنة الدراسية الرابعة ولفصل دراسي واحد، حيث تُخصّص لها ست ساعات أسبوعية، أربع منها للمحاضرة النظرية وساعتان لحلقة البحث. ويُدرس الأدب المقارن بالأسلوب المدرسي المعروف، القائم على وجود منهاج وكتاب مقرر ونمط معين من الامتحان، وهو أسلوب جعل دراسة الآداب في جامعاتنا دراسة ضئيلة المردود، لأنها تشجّع الطالب على الحفظ والاستظهار، بدلاً من أن تحفّزه على ممارسة البحث العلمي بالاعتماد على النفس، وعلى التعامل الخلاق مع الأدب<sup>(٣٥)</sup>. أضف إلى ذلك ندرة الأساتذة المتخصصين فعلاً في الأدب المقارن، وإيكال تدريس هذه المادة إلى أساتذة غير متخصصين.

ومما ساهم في ضمور الأدب المقارن العربي عدم وجود دراسات عليا فيه،

وعدم توافر معاهد أو أقسام خاصّة به في الجامعات العربية، على نط ما هو شائع في جامعات الأفطار المتقدمة<sup>(٣٦)</sup>.

٤ - ضعف التفاعل العلمي مع الأدب المقارن في العالم، والتأخر في استيعاب ما يستجدّ في العالم من اتجاهات نظرية وأبحاث تطبيقية، سواء من خلال الترجمة، أم من خلال عرض الإصدارات الهامة وتلخيصها. وجلّ ما تمّ تعريبه حتى الآن هو بعض مؤلفات الفرنسيين فان تيغم وغويار، والأمريكيين ريماك وويلليك وليفين، والبريطاني براور<sup>(٣٧)</sup>. وإذا استثنينا المدرسة المقارنة الفرنسية، التي لعبت بالنسبة للأدب المقارن العربي دور القابلة، فإن العرب لم يستوعبوا بصورة كافية أيّاً من المدارس المقارنة الحديثة، بما في ذلك المدرسة الأمريكية. ولكنّ التقصير في تمثّل البحوث المقارنة في أقطار أوروبا الشرقية وفي ألمانيا كان شبه تام<sup>(٣٨)</sup>.

ويمكن الإشارة إلى أن أوساط المقارنة العربية لم تأخذ حتى اليوم علماً بمقارن حظي بإجلال الأوساط المقارنة في العالم المتقدّم بأسره. هو المقارن السوفيتي الكبير فيكتور جرمونسكي<sup>(٣٩)</sup>. كما يتجلى ضعف التفاعل بين المقارنين العرب والمقارنة العالمية في هذا الغياب العربي شبه التام عن المؤتمرات والندوات المقارنة الأجنبية، أقليمية كانت أم دولية، مثل مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن التي عقد آخرها في صيف ١٩٨٨ في مدينة ميونيخ الألمانية وسط ما يشبه المقاطعة العربية.

٥ - ضعف التواصل العلمي بين المقارنين العرب أنفسهم، وذلك لعدم وجود مجلة عربية متخصصة في الأدب المقارن، وندرة الندوات العلمية التي تقيمها الجامعات العربية، مما حوّل مؤتمرات الرابطة العربية للأدب المقارن، على ندرتها، إلى مناسبة فريدة للتواصل بين المقارنين العرب، من خلال ما يقدّم في تلك المؤتمرات من أبحاث.

### سبل النهوض

أما سبل النهوض بالأدب المقارن العربي فهي معروفة، وتمثّل في إزالة الأسباب التي أدّت إلى تعثر هذا العلم، ومنعته من أن يؤدي رسالته الممكنة. وهذه السبل هي بإيجاز:

١ - الارتقاء بتدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية، سواء من خلال تطوير مناهج دراسة ضمن دراسة الأدب العربي والآداب الأجنبية، أم بإحداث معاهد خاصة بالأدب المقارن في بعض الجامعات أسوة بما هو قائم في جامعات الأقطار المتقدمة.

٢ - تكثيف استيعاب البحوث المقارنة العالمية، وذلك بترجمة المؤلفات الهامة، أو بنشر ملخصات لما جاء فيها على الأقل. ومن البديهي أن الأبحاث الهامة ليست بالضرورة تلك التي نشرت في كتب، بل قد تكون منشورة في مجلات اختصاصية، ولا شك في أن مشاركة المقارنين العرب في المؤتمرات العلمية الدولية هي وجه أساسي من أوجه استيعاب ما يستجد في العالم على صعيد الأدب المقارن.

٣ - تقوية التفاعل العلمي بين المقارنين العرب، سواء على المستوى القومي، أم داخل كل قطر عربي بمفرده. وذلك باقامة مزيد من الندوات العلمية والحلقات الدراسية حول المشكلات النظرية للأدب المقارن. وحول مواضيع مقارنة تطبيقية. وسواء أردنا تكثيف استيعاب البحوث المقارنة العالمية، أم أردنا تعميق التفاعل العلمي بين المقارنين العرب، فإننا بحاجة إلى منبر علمي أو دورية اختصاصية، تُنشر فيها البحوث المقارنة وتُعرض الكتب، وتغطي النشاطات العلمية. إلى آخر ذلك من مهمات الدورية العلمية المتخصصة، التي لا نستطيع أن نتصور بدونها نهضة للأدب المقارن العربي<sup>(٤٠)</sup>.

وتلك هي أهم الشروط التي يمكن أن يؤدي توافرها إلى نهوض الأدب المقارن في الوطن العربي، وإلى تمكنه من أن يلعب دوراً ذا شأن في تطوير النقد الأدبي العربي، وتجعل تطلعه إلى توجيه الأدب العربي المعاصر «وجهة رشيدة» على حد قول الدكتور هلال، تطلعاً يمكن أن يُنظر إليه بجديّة. وفي رأينا فإنّ هذه المسائل ينبغي أن تكون في رأس جدول أعمال المؤتمر الذي ستعقده الرابطة العربية للأدب المقارن في تشرين الأول / أكتوبر من هذا العام في مدينة مراكش المغربية. فهل سيكون ذلك المؤتمر على مستوى المشكلات التي تواجه الأدب المقارن العربي؟ وهل سيكون على مستوى الرسالة التي يطمح هذا العلم إلى أدائها؟

## الهوامش

- (١) محمد غنيمي هلال (١٩٨٧)، ص ٨.
- (٢) المرجع نفسه، ص ٤.
- (٣) المرجع نفسه، ص آ.
- (٤) المرجع نفسه، ص ب.
- (٥) المرجع نفسه، ص آ.
- (٦) المرجع نفسه، الصفحتان ب و٢.
- (٧) المرجع نفسه، ص ١٨ وما يليها.
- (٨) المرجع نفسه، ص ١٠.
- (٩) المرجع نفسه، ص ٥.
- (١٠) من النقاد من يولي الأصاله أهمية كبرى، ويعتبرها سمة ملازمة لكل أدب جيد، راجع: محمد مندور، (١٩٧٣)، ص ١٦٤.
- (١١) من هؤلاء الأدباء الشاعر والكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت، الذي علق على هذه المسألة بقوله: «إنني متهاون في أمور الملكية الفكرية». أما الكاتب الفرنسي أندريه جيد فينسب إليه القول: «إن الليث ليس أكثر من عدة خراف مهضومة».
- (١٢) راجع مقالنا: لم النقد الأدبي؟ جريدة (العروبة)، ٧ / ٣ / ١٩٨٩. يطمح النقد الأدبي إلى ممارسة دور التوجيه حيال فئتين، الأولى منتجو الأدب من شعراء وكتاب، والثانية هم المتلقون.
- (١٣) محمد غنيمي هلال (١٩٨٧)، ص ٦.
- (١٤) المرجع نفسه، ص ١٤.
- (١٥) لمزيد من التفصيلات حول تصور الدكتور هلال لميدان الأدب المقارن انظر المرجع نفسه، ص ٩٢ - ١٠٢.
- (١٦) المرجع نفسه، ص ١٣.
- (١٧) طه حسين (١٩٧٠).
- (١٨) محمد غنيمي هلال، (١٩٨٧)، ص ١٢.
- (١٩) المرجع نفسه، ص ١٣.
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ٨.
- (٢١) المرجع نفسه، ص ١٣.
- (٢٢) راجع بهذا الخصوص: سعيد علوش (١٩٨٧)، ص ٢٠٨ - ٢١٢.
- (٢٣) يرجع الفضل في تفسير أوجه التشابه بين ظواهر لا تربطها علاقات تأثير وتأثر إلى المقارن السوفيتي الكبير جرمونسكي. راجع بهذا الخصوص: V. Zirmunski (1980).
- (٢٤) محمد غنيمي هلال (١٩٨٧)، ص ١٨.
- (٢٥) حسام الخطيب (١٩٨٢)، ج ١، ص ٤٤ - ٤٧.
- (٢٦) محمد غنيمي هلال (١٩٨٧)، ص ٩٢ - ١٠٢.

- (٢٧) راجع الأبحاث المقدمة إلى ذلك المؤتمر والمنشورة في الأعداد الخاصة التالية من مجلات «المعرفة» (ع ٢٩٥، أيلول ١٩٨٦) و «الموقف الأدبي» (ع ١٨٦، تشرين الأول ١٩٨٦) و «الآداب الأجنبية» (٥١٤ - ٥٢، ربيع وصيف ١٩٨٧).
- (٢٨) محمد غنيمي هلال (١٩٨٧)، ص ١٠٦.
- (٢٩) على هذه الخلفية أمكن النجاح الكبير الذي حققه كتاب المستشرق الألمانية زيغريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب»، (١٩٨٦)، الذي اعتبر العرب أنه قد انصف دورهم الحضاري.
- (٣٠) بخصوص مفهومي التأثير والتلقي راجع بحثنا (١٩٨٦).
- (٣١) بخصوص نقد بحوث التأثير والتأثر راجع: G. R. Kaiser (1980) S. 115 - 155.
- (٣٢) محمد غنيمي هلال (١٩٨٠).
- (٣٣) عبد النبي اصطياف (١٩٨٧).
- (٣٤) حسام الخطيب (١٩٨٢)، ص ٩٧ - ١٣٣.
- (٣٥) راجع نقدنا لدراسة الأدب العربي الحديث في الجامعات السورية (١٩٨٩).
- (٣٦) راجع على سبيل المثال دليل الجمعية الألمانية للأدب المقارن. DGAVL (1988).
- (٣٧) لمزيد من المعلومات راجع الملحق البيبلوغرافي لكتاب سعيد علوش (١٩٨٧)، ص ٣٤١ - ٣٤٢.
- (٣٨) بخصوص البحوث المقارنة في دول أوروبا الشرقية راجع سعيد علوش (١٩٨٧)، ص ١٢٧ - ١٥٧، وكذلك G. R. Kaiser (Hg.) (1980) وفيما يتعلق بالدراسات المقارنة في ألمانيا راجع الفصل الخامس من القسم الأول في كتاب عز الدين المناصرة (١٩٨٨).
- (٣٩) يعتبر الدكتور فؤاد المرعي التلميذ العربي الوحيد لفكتور جيرمونسكي. راجع بهذا الخصوص بحثه (١٩٨٦)، الذي أشار فيه إلى اعتماده «في بعض أسسه النظرية» على دراسات جيرمونسكي.
- (٤٠) مجلات كهذه موجودة في معظم الأقطار المتقدمة، بل هناك أقطار كالولايات المتحدة الأمريكية تصدر فيها أكثر من مجلة للأدب المقارن. لمزيد من المعلومات حول المجلات والاصدارات المقارنة في العالم راجع: H. Dyserinck u. M. Fischer (Hg.) (1985).

## ثبت المراجع

- اصطياف، عبد النبي (١٩٨٧): دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي ونقده. الآداب الأجنبية، ع ٥١ - ٥٢، ربيع وصيف ١٩٨٧، ص ٩٧ - ١١٦.
- الخطيب، حسام (١٩٨٢): الأدب المقارن. الجزء الأول: في النظرية والمنهج. جامعة دمشق.
- عبود، عبده (١٩٨٦): الأدب الألماني، دراسة استقبالية في الوطن العربي. الآداب الأجنبية، العدد ٤٨، السنة ١٣، صيف ١٩٨٦، ص ٦٧ - ٨٩.

- عبود، عبده (١٩٨٩): دراسة الأدب العربي الحديث في جامعاتنا، أزمة عقليات أم أزمة هيكلية. (بحث غير منشور).
- علوش، سعيد (١٩٨٧): مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- مرعي، فؤاد (١٩٨٦): في نظرية الأدب المقارن. المعرفة، ع ٢٩٥، ص ٢٥ أيلول ١٩٨٦، ص ١٤٩ - ١٧٦.
- المناصرة، عز الدين (١٩٨٨): مقدمة في نظرية المقارنة. عمان: دار الكرمل.
- مندور، محمد (١٩٧٣): في الميزان الجديد، القاهرة، ط ٣.
- هلال. محمد غنيمي (١٩٨٧): الأدب المقارن. (بيروت: دار العودة).
- هلال، محمد غنيمي (١٩٨٠): ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي. بيروت: دار العودة.
- هونكه، زيغريد (١٩٨٦): شمس العرب تسطع على الغرب (بيروت: دار الأمان الجديدة) ط ٨، ت: فاروق بيضون وكمال دسوقي.

-Deutsche Gesellschaft fuer Allgemeine und Vergleichende Literaturwissenschaft (DGAVL): Mitteilungen 1988.

-Dyserinck, Hugo u. Manfred S. Fischer (Hg.) (1985): Internationale Bibliographie zu Geschichte und Theorie der Komparatistik, Stuttgart.

-Kaiser, Gergard R. (1980): Einfuehrung in die Vergleichende Literaturwissenschaft, Darmstadt.

-Kaiser, Gerhard R. (Hg.): Vergleichende Literaturforschung in sozialistischen Laendern, Stuttgart.

-Zirmunski, Viktor (1980): Ueber das Fach Vergleichende Literaturwissenschaft. In: G. R. Kaiser (Hg.) (1980).





# تَشْوِكو فِلسَفي

## وأدب الأطفال السوفييتي

بمّام : د . عبد الرّحيم أبو ذكري

لا يكاد القاريء العربي يعرف إلا أقلّ القليل ممّا يكتب للأطفال بالاتحاد السوفيتي وهذه فجوة معرفية واضحة ينبغي ملؤها فإن الأطفال ينشأون وقد يكبرون وقد أصبح ما قرأوه من قصص وقصائد جزءاً من تركيبهم النفسية تميّزهم عن الآخرين من أفراد الشعوب الأخرى . والمثل يقول من شبَّ على شيء شاب عليه ، والطفل أبو الرجل الراشد وبما أن الاتحاد السوفيتي بلد ضخّم المساحة وذو نفوذ وتأثير في مجريات الأمور في العالم فقد رأينا أن نلقي الضوء على أحد أبرز كتاب الأطفال السوفييت!

نحبّ أن ننّه إلى أن الكاتب لم يكن شاعر أطفال فحسب ومحلاً لنفسياتهم في كتابه «من الثانية حتى الخامسة» بل هو ناقد أدبي مشهور وقد تخصّص في نيكراسوف الشاعر وكتب مقالات أدبية كثيرة عن نيكراسوف وغيره من أعمدة الأدب الروسي والسوفيتي وعمل في دار نشر «الأدب الأجنبي» ، وقد كان على معرفة وثيقة «بكورولينكو» و«بونين» و«بلوك» و«مايكوفسكي» و«تشيخوف» وكان على معرفة بالكاتبين الانجليزيين «ويلز» و«كونان دويل» صاحب مغامرات «شرلوك هولمز»

وكذلك بكتاب أدب الأطفال أمثال «جيتكوف وباشيليف». وقد كان آخر خطاب وجهه «تولستوي» لشخص قبل مغادرته النهائية «لياسنايا بوليانا» ضيعته الشهيرة كان لتشايكوفسكي، (سنة ١٩١٠).

### من الثانية إلى الخامسة

ينقسم أدب الكاتب إلى قسمين كبيرين أقصد أدبه الموجه للأطفال وأدبه عنهم، فهناك قصائد كثيرة وقصص كتبت ليقراها الأطفال أو ليقراها الكبار للأطفال. وهناك كذلك كتاب «من الثانية حتى الخامسة» وهو بحث شبه علمي حول الأطفال وهم ما بين سن الثانية إلى الخامسة من أعمارهم. وسأسهب في هذه المقالة نسبة لأهمية الموضوع للوطن العربي. كتاب «من سن الثانية إلى الخامسة» أهدها الكاتب لحفيده «ماشاش» ثم أهدها فيما بعد لأحفاده الآخرين حين أصبح جداً لأكثر من مرة! وينقسم الكتاب إلى ستة فصول وخاتمة والفصول هي: لغة الأطفال، الباحث الذي لا يتعب، النضال من أجل الحكايات الخرافية، سخافات غير سخيفة، كيف يؤلف الأطفال القصائد، نصائح لشعراء الأطفال، ثم الخاتمة.

يتناول الكاتب في الفصل الأول تقليد الأطفال للغة الكبار وإضافاتهم الخلاقة ويتكلم عن كل هذا بحبّ للأطفال وللغة الأطفال وحساسيتهم تجاه الكلمات وهو يبرهن أن الطفل خلاق وله من المعرفة باللغة نصيب وافر وأن كلماته الجديدة التي يخلقها لها حق البقاء لأنها تأتي رشيقة دقيقة وطبيعية وإن كثيراً من هذه الكلمات التي يخترعها موجودة في اللغة ولكنها أما هُجرت وأما بطل استعمالها وأما نُسيت بواسطة الكبار، غير أن بعضها لا يزال يستخدم في مناطق نائية من البلاد الروسية ويأتي الكاتب بأمثلة يتعذر ترجمتها لأنها كلمات روسية قحة اخترعها الأطفال أو بالأصح أحيوها دون أن يدروا وذلك على غرار كلمات سمعوها وقواعد صحيحة استنبطوا منها ما يعتبر «خطأ» وهم إذن يقلدون الكبار ولكن على طريقتهم هم فهم يسمعون واختلاطهم بالكبار هو الذي يجعل منهم بشراً ناطقين ومفكرين وصائغين للألفاظ غير مقلدين في أحيان ما ومثرين للغة.

ويقول تشوكوفسكي «يعترينا الخوف حين نفكر في الكمية الهائلة من الأشكال النحوية التي تتساقط على رأس الطفل المسكين. أما الطفل فهو يجد طريقه في هذه الفوضى بكل بساطة إذ يضع تحت عناوين محدّدة عناصر فوضوية من الكلمات التي سمعها من غير حتى أن يلاحظ في هذا المجال مجهوده الشخصي الجبار. ولو أن الانسان الراشد أضطر لاستيعاب كل هذه الكمية من الأشكال النحوية لتمزقت جمجمته، بينما عالم اللغة الذي عمره عامان يستوعبها بسهولة وحرية. وإذا كان المجهود الذي يبذله يثير العجب فإن السهولة غير المعهودة التي ينفذه بها تثير العجب أكثر. ويضيف الكاتب: أن الطفل هو بالفعل كادح عقلي عظيم على ظهر كوكبنا من غير أن يشك لحسن الحظ في هذا!» ويقول الكاتب أن هذه المقدرة اللغوية غير العادية يصيبها الوهن فيما بعد ولكن الأطفال مع ذلك يستمرون في حفظ القواعد المتعارف عليها بكل تعقيداتها ورهافتها وهكذا يرمون فترة خلق الكلمات وراء ظهورهم ليبدأوا مرحلة مختلفة نوعياً فيما بعد.

والشيء الطريف في هذا الفصل وغيره هو نوعية وكمية وطرافة الكلمات التي يوردها الكاتب على ألسنة الأطفال وهي كلمات تجمعت لديه بعد مجهود كبير بذله مع أطفاله وأطفال الآخرين المقربين منه ومن الخطابات التي كانت تصل من آباء الأطفال الذين يخترعون الكلمات الجديدة، بعد أن نشر طالباً مشاركتهم له في ملاحظاته للغة الأطفال. وقد استمر جمعه للمادة أكثر من خمسين سنة. ولكن الكاتب يجد الأخطاء مع ذلك في لغة الأطفال وذلك يتمثل في فهمهم الخاص المغلوط لبعض الكلمات لكنها مع ذلك أشياء مغفورة ما دام يمكن اصلاحها وجعل الطفل يسير في الطريق اللغوي الصحيح.

في الفصل الثاني وعنوانه «الباحث الذي لا يتعب» يتحدث الكاتب عن الأسئلة التي يوجهها الطفل وهي: «لماذا؟» و«كيف؟» و«ما السبب؟».. وغيرها.. هذا الفصل مليء بالحياة والطرافة وكذلك ما تليه من فصول. فأهم ما فيه أن الكاتب لا يدعي أنه يكتب كتاباً علمياً بل هو يصف حياة الأطفال ويعطي أمثلة من حالاتهم النفسية وردود أفعالهم المختلفة تجاه أحداث الحياة فهم أمّا فرحون أو حزان

أو غارقون في التفكير أو في حالة لعب أو يمارسون نزواتهم أو يتشاجرون . ولكن الكاتب يبين أن عقل الطفل يعمل ويفكر ويحاول أن يصل إلى حلول لمسائل عقلية وعلمية وفلسفية كبرى طول الوقت . وحتى لو لم ينجح في إيجاد الحل الصحيح إلا أنه يسير في الطريق القويم ويدرب عقله على التفكير والاستنتاج والمقارن والعمل الذهني الدءوب وهذه المسائل من ضمنها الحياة والموت والميلاد والخلود والأخلاق والفلسفة . . . الخ .

في «الباحث الذي لا يتعب» يترك الكاتب علاقة الطفل بلغته الأم وخلقه وأرتجاله ويتحول إلى نظرة الطفل إلى الدنيا وبحثه عن القواعد والأحكام كشخص جديد على العالم المحيط به . . يعترض الكاتب على عدم احتفائنا بل احتقارنا أحيانا لعقلية الطفل فنحن نصف من يقول كلاماً فارغاً من المعنى بأنه يملك منطقاً طفولياً أو نقول له أنك تفكر كالطفل أو ماهو أسوأ - أنت غبي كالطفل! والبعض يرى أن هذا صحيح فالأطفال يقولون أحياناً أشياء خرقاء ولا منطقية . لكننا حين نمنع النظر في هذه الأشياء «اللامنتقية» و«الخرقاء» فإننا سرعان ما نترك آراءنا الفطرية حول هذا الموضوع ونلقي بها جانباً فالطفل يملك خبرة قليلة في الحياة ولهذا فهو يستعملها أحيانا في غير محلها . بعد هذا يورد الكاتب أمثلة على أخطاء الأطفال

\* يسأل الطفل والده :

— بابا . . حين كنت صغيراً، هل كنت ولداً أم بنتاً؟

\* البحر له شاطئ واحد، أما النهر فله شاطئان! (تعليق طفل)

\* ماما . . ماذا يعني المذبح بقوله الحرب؟ الحرب؟

— الحرب هي أن يعتدي الأعداء على بلد مسلم ويقتلون الناس ويحرقون المدن والأشجار .

فتأخذ الطفلة المذبح

— إلى أين تذهبين به؟ ضعيه في مكانه!

— سأذهب لأرميه في حفرة النفايات

— لماذا؟

— حتى لا تحدث الحرب!

\* رأت الطفلة القطار وهو ينفث الدخان فقالت

— إذن السحاب يأتي من دخان القطارات!

### فوضى عقلية

يقول الكاتب معلقاً أن كل كلمة أوردناها هنا وكل منطق طفولي ينعكس عليه الجهل بأبسط الأشياء. ولكن الهدف ليس الاستهزاء بالأطفال. بالعكس فالأمثلة هذه تبعث على الاحترام للمجهود الضخم الذي يقوم به ذهن الطفل لكي يتغلب على هذه الفوضى العقلية في دماغه قبل بلوغه سن السابعة، وعلينا أن نعجب بكيفية وصول الذهن الطفولي إلى مختلف أنواع المعارف في هذه الفترة القصيرة، فهو حين يصل إلى سن الدراسة يكون قد تخلص من الضلالات التي كانت عنده بين سن الثاني وسن الخامسة فهو في السابعة يعرف طبعاً أن أباه حين كان صغيراً كان طفلاً وليس طفلة وأن البحر أيضاً له شاطئان تماماً مثل النهر وأن القاء الراديو في المزبلة لن يوقف الحروب وأن السحاب لا تصنعه مداخن القطارات. والمقارنة البسيطة بين تلميذ المدرسة والطفل الصغير الذي لم يقترب من سن الدراسة دليل واضح على عظم المجهود المبذول، والطفل في هذه السن لن يسأل كما سأل آخر صغير أمه:

— ماما. عندما كنت صغيراً هل كنت أرضع اللبن كمثل تلك الطفلة؟

— نعم

— وكيف كنت تدخليه الى هناك؟

— إنني لا أدخله إنه موجود أصلاً.

— وهل توجد هناك قهوة أيضاً؟

يجب ألا يغرنا - يقول الكاتب - أن منطق الطفل أعوج فهو يحاول أن ينطق ولو بطريقة خرقاء الفوضى التي أمامه ويحاول أن يصل إلى علة الأشياء ليجيب على الاسئلة الآتية: لماذا؟ وأي سبب؟ وبأية طريقة؟ أو كيف؟ ومهما تعثر الطفل في طريقه نحو الإجابة وهو يتعثر كثيراً ألا أنه يسير في الطريق الصحيح. وهو أن أخطأ هذه

المرّة فهو مع ذلك - أكرّر - يظهر ميل العقل الواضح لإيجاد الاعتماد المتبادل للحقائق التي يراقبها. فنحن نجد هنا جنين مقولسة السبب و المسبّب والمقارنة عن طريق تشابه الأشياء (أو تضادها). الخ

لكن الطفل لا يكون طول الوقت في حالة تفكير متصل فهو على أية حال طفل فنراه إما يلعب أو يتقافز أو يغني أو يتشاجر أو يساعد جدته أو يظهر نزقه أو يرسم أو يستمع إلى حكاية أما عقلنة الحياة فهو لا يضعها كهدف خاص عليه تحقيقه .

ولهذا فهو لا يصل إلى الحقائق رأساً بل عن طريق التعرجات ويمكن أن يصدق أولاً يصدق نفس الشيء، فأحد الآباء حاول أن يحمي بنته من الخرافة بأن قال لها ان «الشيخة الشريرة باباييجا» الروسية غير موجودة أساساً، فأجابت: «أنا أعرف بدونك أنها غير موجودة ولكن أحك لي حكاية وكأنها موجودة!». فالحكايات الخرافية معترف بها عند الأطفال بالمقدار الذي يساعدهم على معرفة العالم. فإذا لم تفعل فإنهم يملونها. . .

والطفل كما يقول هيرتش «يود أن يعلم لماذا ينزل المطر؟ ولماذا ينبت العشب؟ ولماذا يكون القمر بديراً أحياناً؟ ولماذا نرى أحياناً جزءاً فقط من القمر؟ ولماذا يمكن للسماك أن يعيش في الماء في حين أن القطط لا تستطيع؟» ان الناس يملكون ميزة التوغل إلى سبب كل شيء يجري حولهم وهم يفضلون اختلاق سبب اخرق عندما لا يعرفون السبب الحقيقي، وهذا الفضول للمعرفة - لمعرفة ماذا؟ ولماذا؟ وكيف يتم؟ ينقص الحيوانات. هذه الأسئلة تهم الصغار فقط ولكن مع الكبر تتلاشى وتندثر وتبدأ أسئلة مغايرة.

## أسئلة الأطفال

والطفل يسأل لماذا؟ ولأي سبب أكثر مما يسأل عن الكيفية: كيف؟ وحوالي السنة الثالثة وأحياناً قبل ذلك يكون الطفل متأكداً أن العالم قد خلق لتحقيق رغباته الخاصة وحاجاته الشخصية. فالبقرة خلقت لكي تمنحه الحليب وشجرة التفاح لكي تمنحه

التفاح وأن العمة زينا قد خلقت لكي تعطيه التورتة و«الكمك» في الأعياد والمناسبات . وإذا لم يتفق منطق مع ما يراه حوله فإنه يعلن احتجاجه فمثلاً يمكنه أن يعلق هكذا:

\* طيب مفهوم . فالحيوانات ضرورية في حديقة الحيوانات لكن ما فائدتها في الغابة؟ إنها مجرد خسارة للناس وخوف لا داعي له .

وتنهمر الأسئلة على رؤوس الكبار وهؤلاء يضيّقون بها وغالباً ما يكون الرد:

ستكبر باساشا وستعرف بنفسك!

وقد رد ساشا هذا على ما قيل له بعد تفكير طويل :

— إذا لم تحببي فسأصبح غيباً . وإذا لم تمنعني عن الإجابة وشرحت لي فعندها سأكون يا ماما أكثر ذكاء!

وعندما يجد الوالد أو الوالدة صعوبة في الإجابة فإنهم يلجأون إلى الكذب وذلك للتخلص من هذه «اللهاذات» المتوالية والسبب الآخر هو أنهم لا يريدون أن يفقدوا هيبتهم في أعين أطفالهم . كأشخاص يعرفون كل شيء عن كل شيء وكأنهم موسوعة متحركة .

والأطفال يحبّون أيضاً معرفة أسباب الولادة وكنهها: فالطفل - كما تقول العالمة الانجليزية سوزان اسحق - يرى أن العالم فيه رجال ونساء وأناس كبار السن وأطفال ويوجد صبيان وصغار ويرى أنه في عائلته يولد مراراً رضع ويسمع ما يحدث في العائلات الأخرى وسيكون بالطبع أعمى وأطرش وضعيف العقل في نفس الوقت إذا لم ينبثق في ذهنه سؤال عن منشأ الأطفال .

وحين يسأل الأطفال هذا السؤال فالآباء يحاولون تبييع الإجابة أو إعطاء اجابات غير صحيحة مثل: لقد اشتريناكم في المتجر أو المستشفى وهذه الأسطورة حول بيع الأطفال هي من أكثر الأساطير رواجاً . ولكن الأطفال هنا يسألون أحياناً أسئلة محرّجة ومضحكة في الوقت نفسه :

\* ومن أين تحصل الحيوانات على الأطفال؟ فليست تملك متاجر؟

\* الآن يا سلافك ستكون حياتك أكثر مرحاً فقد اشترينا لك أختاً

- ولماذا؟ كان الأفضل أن تشتروا جهازاً تلفزيوناً!

\* حين سمع الطفل شكوى أمه من أنها كانت تريد بنتاً بدلاً من الولد قال ناصحاً  
لأمه:

- إذا بقي كعب الأيصال فيمكن تبديله ببنت!

وللأطفال يقال أيضاً أن الطفل قد وجدوه في الغابة. لكن طفلاً صغيراً قال بعد  
رجوعه من الغابة:

- أنني لم أر هناك أي أطفال في الغابة (ينتظرون التقاطهم)

وقد يقبل الطفل الصغير الطريقتين معاً.

\* ماما هل اشتريتي أم ولدتي؟

- ولدتك.

- ولكن «ليونكا» اشترتها أمها من السوق!

### احتجاجات

يحتج تشوكوفسكي في هذا الفصل على كتاب العالم الانجليزي جرونبرغ  
بعنوان: «الوالدان والتربية الجنسية» لأن الكتاب يشن حملة على الآباء «المتخلفين»  
الذين يعتقدون أن الوضوح في هذه المسائل شيء سابق لأوانه. وكذلك يرد على  
كتاب آخر عنوانه: «كيف يولد الأطفال» صدر أيضاً في لندن. وهو مكتوب أساساً  
ليقرأه الأطفال وقد صدر ١٦ مرة (ولكن الكاتب لا يذكر سني إصدار الكتاب هذه!)  
والكتاب له عنوان فرعي: بالذي ينبغي أن يعرفه كل طفل والكتاب في نظر  
تشوكوفسكي موجه لأطفال ليست لهم القدرة بعد على تلقي المعلومات العلمية  
بطريقة منهجية فهو سابق لأوانه أذن. والكتاب فاخر الطباعة ورسومه جيدة ولكن  
الكاتب يستوقف النظر، نظر القاريء إلى أن المؤلف يحكي بفتية عالية كيف تواصل  
الطيور والنباتات والأسماك والحيوانات الداجنة والبرية، ومعها الإنسان بنسلها «فماذا  
نريد أكثر من هذا؟» يتساءل الكاتب! لكن هل يمكن أن نقول أن هذا الكتاب  
صادق. «من المؤسف. كلا» يجيب تشوكوفسكي فتحت شعار «قول الحقيقة للطفل



فإنها تقول له كذباً فالمسألة ليست في تقنية الولادة نفسها بل في العاطفة الكامنة وراء العلاقة بين الجنسين. وإذا اكتفينا بالوصف الخارجي لألغينا باتريشيا دانتي و«روميو وجوليت» و«مدام بوفاري» وحتى «الحبوبة» و«السيدة ذات الكلب لتشيخوف أو الأميرة ماري» في قصة ليرفنتوف «بطل من زماننا». فالعملية الجنسية دون العاطفة مجرد عمل تكنيكي لتجديد النسل البشري. والقصائد التي كتبت عن الحب تحمل مجموعة مركبة من العواطف لا يتم الحب بدونها. أن كل رجل ينظر إلى علاقته بالمرأة كشيء قائم بذاته لا يعتمد على مواصلة النسل وليس هدفه زيادة سكان العالم من صلبه الشخصي. ولهذا فإن القول بأن طائر اللقلق هو الذي يجلب الأطفال فيه من الصدق أكثر من الحقيقة الحياتية نفسها، وإذا تسرع الأبوان في اخباره بالحقيقة عن الحمل فالطفل سيحول هذه «الحقيقة» إلى مادة لخياله الواسع، ويورد الكاتب الأمثلة على كلامه فبعد أن سمع الطفل «فوليك» من والده القصة الحقيقية حول الحمل في بطن أمه أخذ يرتجل قصة حياته الطويلة داخل رحم أمه قائلاً:

— يوجد هنا حاجز (في بطنك يأمي).

— أي حاجز؟

— حاجز له ساحة صغيرة. والساحة جميلة. نعم. نعم. لقد كنت أراه بنفسي وأنا داخلك. وهناك حجرة صغيرة صغيرة وهناك يعيش أحد الأعمام.

— أي عم؟

— لقد كنت في ضيافته وشربت عنده شايًا ثم لعبت في الحديقة الصغيرة. . . هناك توجد حديقة صغيرة وفيها رمل. وتوجد عربة صغيرة للأطفال وقد لعبت مع الأطفال وتزحلقتنا.

— ومن أين أتى الأولاد؟

— لقد ولدوا للعم ذاك. وهم كثار كثار. وكلهم أولاد ولا بنات بينهم، وهناك مسئولون زراعيون جالسون. . . ثلاثة صغار صغار بهذا الحجم.

— وهل أنت عشت بينهم؟

— كنت أزور العم وعندما حان ميعاد ولادتي ودعته مصافحاً وخرجت إليك في بطنك.

\* وحين حكوا لإيليوشا كل «الحقيقة» عن الحمل أخذ في الحال يخترع أخيلة .  
— لقد سرت وأخذت أبحث عن ماما . ونظرت في قلب امرأة ثم أخرى وكل منهن  
كانت شريرة القلب . وأخيراً وجدت عمة طيبة القلب وذهبت لأعيش في بطنها .  
«فالحقيقة» التي يريد الكبار أن يقربوها له كانت تهرب من عقله ككرة التنس  
التي تضرب على حائط صلب .  
تقول أم :-

\* لقد شرحت له كل شيء عن الحمل وعن الرحم . وبعدها حكيت له في يوم آخر  
حكاية عن اللقلق وحين سألتته من أين أتت أخته قال ببساطة : لقد أتى بها طائر  
الللقلق ! والمدهش أنني لم أقل له مطلقاً أن اللقلق هو الذي أتى بها . والحقائق  
«العلمية» الأخرى لا يمكن أن يتم استيعابها الا بعقلية طفولية لها طريقتها الخاصة في  
التفكير والتقبل .

\* ماما . هل صحيح أن الإنسان انحدر من القرد؟  
— نعم .

— اذن لهذا صارت القروود قليلة بهذا الشكل !

\* و . . ألا تعلم أن جميع الناس انحدروا من القروود أنا وأمك مثلاً؟  
— أنتِ كما تشائين . أما أمي . . فلا !

والأطفال حين يفكرون في انحدار الانسان من القروود فإن تفكيرهم لا يتعدى  
جدّهم أو جدّتهم .

## التفاؤل والأطفال

ويقرّر تشوكوفسكي أن الطفل هو شخص متفائل بطبيعته يكره الحزن وهو  
يعتقد أن الحياة قد خلقت للسعادة وهو يكره الموت لكنه ينظر إليه ويخافه لأنه يسه  
هو ، والأطفال يقفون مع أبطال الحكايات المحبة لأنهم يرون أنفسهم متجسدين في  
الأبطال وليس لأنهم طيبون في جميع الأحيان أعني الأطفال ، ولكي لا تسبّب لهم  
الحكاية الحزن فإنهم يعيدون صياغتها أو يتجاهلون تلك الصفحات التي تتحدث عن

عذابات الأطفال وقد يمزقونها وهم كثيراً ما يطلبون من الكبار عدم قراءة تلك الأماكن الحزينة أو الخطرة على الطفل .

ولا تفوت الطفل كما لاحظ تشوكوفسكي فكرة الموت . فذات الرداء الأحمر وهي حكاية محزنة فيها تموت الجدة إذ يأكلها الذئب . ولهذا فإن الصغار يغيرون من الحكاية لكي لا تموت الجدة كأن يخفوها وراء حجر فلا يراها الذئب كما فعل أحدهم أو كان يتجاهلوا وجود الذئب تماماً كما فعلت فتاة أخرى قائلة : لا داع للذئب !

الأطفال إذن يحبون التفاؤل والحياة والخلود لأنفسهم ولكنهم مع الزمن يفكرون في مصائر الآخرين ويحاولون انقاذهم بخيالهم من الموت !  
\* ماتت الجدة . والآن يقومون بدفنها . لكن بنتا وعمرها ثلاث سنوات ليست حزينة بصورة خاصة :

- هذا لا شيء . انها سترقد في هذه الحفرة ثم تتحول لحفرة أخرى وترقد وترقد ، وبعد ذلك سوف تشفى !

\* جاءت بنت عمرها خمس سنوات إلى المقبرة ورأت رجلاً سكراناً ينهض من بين المقابر مترنحاً ويختفي وراء الشجيرات ، وعندها قالت لأُمها :  
- هذا الرجل قد خرج من القبر !

\* قال طفل عمره ثلاث سنوات هذا التكهن :  
- انهم يدفنون الرجال الكبار السن ، هذا معناه أنهم يزرعونهم في التربة . ومنهم

سيخرج الأطفال ، مثلما يحدث مع الورود !  
وبعد أن يكبر الأطفال يصبح تفكيرهم مركزاً لا عليهم فقط بل على غيرهم :

\* يا ماما . سأدرس بدرجة ممتازة لأنني سأكون دكتورة وسأخترع دواء يجعل الناس لا يموتون .

- هذا شيء مستحيل .  
- إذن اخترع دواء يجعلهم يعيشون لا أقل من مائة عام ، سأخترع مثل هذا الدواء

بلا أدنى شك !  
\* وعدت ليذا ذات الخمسة أعوام أباهما :

— سأذكرك دائماً - حتى بعد أن تموت

لكنها قاطعت نفسها في الحال

— كلا . الأفضل أن نموت معاً . وإلا فإنني سأكون حزينة جداً إذا متُّ أنت قبلي !

وتترك العلوم الحديثة بصماتها على الأطفال ولكنهم يكونون علماء من نوع خاص :

\* رأى طفل عمره ثلاث سنوات حصانا واقفاً في الشارع فقال بثقة

— لقد انقطع عنه التيار الكهربائي لهذا فهو يقف بلا حراك !

\* رأت طفلة الفيل لأول مرة في حديقة الحيوانات وأشارت إلى خرطومها قائلة :

هذا ليس أنفه . إنه أنبوب مضاد للغازات .

\* ذهبت طفلة لأول مرة إلى القرية وهناك رأت عجلاً فسألت :

— هل يمشي ألياً ؟

\* سألني حفيدي :

— جدي ، هل يصبّون البنزين في الحصان ؟

\* ما هذا الكلب ؟

— إنه كلب رعي ألماني ؟

— وهل وقع في الأسر ؟

فالحرب ضد الفاشية انعكست هنا على نفسية الطفل .

\* لا أدري ما هي مهنة أبي ؟

— أما أبي فسائق

— وأنت يا فيتكما ماهي مهنة أبيك ؟ !

— إنه وغدا !

— من قال لك ؟

— ماما قالت . .

فقد انعكست هنا للأسف العلاقات السيئة بين الأب والأم كما نرى ، والأطفال في

نظر تشوكوفسكي لا يخلون من دهاء ويورد مثلاً طريفاً :

\* لماذا تبكين يا عزيزتي ؟ كفى عن البكاء !

— انني لا أبكي «لك» بل أبكي للعممة «سيميا». هذه البنت واسمها نورا قد عبرت عن علاقة كثير من الأطفال الأصحاء في سن الثالثة بالقيمة الاجتماعية للدموع «فليس من النادر أن يبكي الطفل في هذه السن» قاصداً ببيكائه شخصاً محدداً لهدف محدد سلفاً.

\* نهت الأم كوليا ذا الثلاث سنوات من رمي الكرة على النجفة. فأخذ يبكي بصوت عال جالساً على الأرض في منتصف الحجرة. اختفت أمه خلف الستارة فظن أنها خرجت ومسح وجهه بكفه وتلفت حوله وقال:

— لأي سبب أبكي إذن؟ لا أحد في الحجرة!

ثم ذهب ليبحث عن أمه فلم يجدها ووجد بدلاً عنها إحدى الجارات. وكان طوال البحث لا يبكي ولكنه ما أن اقترب من الجارة حتى جأ بالبكاء، وقال آخر:

\* عندما يأتي أبي وأمي إلى المنزل فانا أبكي.

— وعندما يكونان غير موجودين؟

— أنا لا أبكي أمام جدتي.

— لماذا؟

— لأن البكاء أمامها لا فائدة منه!

\* قالت طفلة: لقد وقعت اليوم وأصبت بشدة؟

— هل بكيت؟

— لا.

— لماذا؟

— لأن أحداً لم يرني!

\* وهذه حادثة أكثر دلالة، ففي إحدى الشقق التي تسكن فيها أكثر من عائلة كانت امرأة تهدد طفلها لكنها كانت قلقة فوراء الحائط الرقيق يعيش فانيا وهو طفل صاحب وبكاء بطريقة غير معقولة. ويكفي فقط أن يصرخ ليستيقظ الرضيع. أرادت الأم أن ترضي جاراها الصغير فانيا فأعطته قطعة حلوى كبيرة وطلبت منه أن يسكت ولولمدة ساعة فقط. أخذ فانيا الحلوى وذهب لكنه سرعان ما رجع ومدّ لها قطعة الحلوى قائلاً:—

— هاك . خذي ، لا أستطيع . سوف أبكي !

ثم خرج من الغرفة وهو يبكي بصوت عال .

لكن من الخطأ الفادح الظن بأن الأطفال سيكون جميعهم ولهذا السبب وحده . فهم سيكون غالبا بسبب جرح مشاعرهم أو ضجرهم أو من الألم . ولكني الآن أتحدث للأسف - يقول المؤلف - عن الحوادث التي لا تخص والتي يحاول الأطفال فيها الحصول - عن طريق الدموع - على شيء يريدونه . وعلى الكبار عدم تشجيع مثل هذه الدموع . ويخطيء الكبار الذين يستجيبون لدموع الصغار غير العادلة فهم بذلك يعودونهم على استعمالها والخطأ كله يقع هنا على الكبار الراشدين .

والقارئة م . سوسيتنا من قازان كانت محقة حين كتبت لي في أحد خطاباتها ما

يلي :

« إذا لم يؤدّ البكاء والدموع إلى النتيجة المرجوة بالنسبة للطفل من قبل الوالدين فإن الطفل لن يبكي قط بسبب المصلحة الذاتية » .

\* والدهاء شيء يتميز به الأطفال أكثر مما نتصور - حسب ما يلاحظ المؤلف - فالأسطورة العاطفية حول الطفل وكأنه ملاك صغير وشخص عادل بسيط بعيدة جداً عن الحقيقة . فالطفل ليس ملاكاً صغيراً أبداً كما يتصوره والداه اللذان أعماهها حبه . فكم من مرة يحاول أن يقدم رغباته وكأنها انكار للذات وغيرية . فمثلاً من الذي لا تأسره مثل هذه العبارة :

— ماما . أمسكيني من يدي . . وإنا سأمسكك حتى لا تقعي !

## عالم خصب

\* كانت مارينا ذات الخمسة أعوام تأكل الطعام بلا شهية وكسل ولكي تشرب الحساء بطريقة أسرع فإن أمها تقترح عليها أن تتسابقا في استعمال الملعقة . فرفضت مارينا ولكنها علّلت رفضها بطريقة مأكرة قائلة :

— لا أريد أن أسبق أمّاً طيبة مثلك !

\* كانت حفيدتي ذات العامين ونصف تقفز بمرح في البركة وفجأة لاحظت أنني أنظر

- إليها من وراء الستارة . لم تكن ترغب في ترك البركة ولهذا فقد صاحت بصوت قلق :
- ابتعد عن النافذة ، فقد تصاب بالبرد!
- \* كانت زويا وعمرها أربعة أعوام تستمع إلى الإذاعة . وفجأة رددت عبارة لا تفهمها سمعتها من المذيع :
- جرت مظاهرة مضادة للفاشية في اليونان .
- ماذا تعني هذه العبارة ؟ سألتها الجدة باند هاش وبدلاً من أن تعترف ببساطة بأن العبارة فوق مستوى عقلها فإنها نقلت عدم المعرفة لجدها قائلة :
- أنت لا تعلمين مامعنى هذا؟ يا بابا اشرح لها من فضلك فأنا أشعر بالخجل لأنها لا تعرف!
- ولكن الأطفال قد يظهرون صدقاً غير محدود
- \* يا لينا! إلى أين؟ قفي! لا داع لإشعار الكلب بأنك تخافينه!
- فترد لينا وهي تجري بعيداً :
- ولماذا أكذب عليه إذا كنت فعلاً أخافه؟
- أو أسئلة ساذجة :
- \* طفل لأصلع :
- لماذا وجهك كبير بهذه الطريقة؟
- \* أو أسئلة فلسفية :
- متى يحىء الغد
- بعد اليوم .
- وجاء الصباح التالي
- إذن اليوم غداً؟
- كلا . اليوم هو اليوم .
- ولماذا لا أستطيع أن ألحق الغد أبداً؟
- \* أو يظهرون شيئاً قد يعتبره الكبار طريفاً ففي أحد الباصات كان الأب يجلس وعلى ركبتيه طفله ذو الخمس سنوات . ودخلت الباص امرأة فأراد الطفل أن يكون

«جنتلماً» فقام من على ركبتي والده وقال لها :  
— تفضلي بالجلوس !

\* أو يظهرون رغبة في العدالة حتى في علم الحساب : فقد قيل لطفل : ماما أكلت  
أربع قطع حلوى وأعطت ابنها اثنتين فكم أكلا معاً؟ لكن الولد لا يحل هذه المسألة  
بل أن ما يهيمه هو عدم عدالة التوزيع .  
— لماذا أعطت ابنها ميشا أقل منها؟ كان يجب أن يأخذها بالتساوي !

## الخرفة والأطفال

وهكذا ينتهي هذا الفصل الحيوي والطريف والطويل وسنعمد إلى الاختصار فيما بقي  
من الكتاب اقتداء بما قلّ ودلّ ثم ندلي ببعض الملاحظات التي لا بد منها في هذه  
المقالة .

في الفصل التالي يتناول الكاتب ضرورة الخرفة للأطفال ولتنمية مقدراتهم .  
وأمتع ما في هذا الفصل هو بداية الكتابة للأطفال وما دار من نقاش حول طبيعتها  
وما ينبغي أن يقدم للأطفال ، وهل نقدم لهم الحكايات والخرافات التي تبعدهم عن  
الواقع كما زعم أحد التيارات القوية أم يجب أن تكون الخرفة جزءاً من الطرق التي  
توصل الأطفال الى فهم صحيح إلى العالم كما يقول تيار آخر يعتبر تشوكوفسكي أحد  
أعمدته - وتشوكوفسكي غاضب على هذا التيار الضيق الأفق الذي يرفض الحكايات  
والخرافات على ألسنة الحيوانات وهو يتعرض له بالنقد الشديد ويسخر من ضيق أفقه  
وفهمه الحرفي للأمور وجهله ويلقي بعض الأضواء على تاريخ الدولة السوفيتية  
الوليدة والصراعات التي كانت تدور بين مختلف الأجنحة ذات الأفكار المتناقضة  
والمتعارضة والمتضادة بل المتعادية أحياناً ، فرفاق الطريق الجدد وجدوا أن الطريق  
أمامهم غير ممهد وغير مطروق وأن عليهم هم أن يجتهدوا لكي يعبروا الدرب أمام  
الأجيال الجديدة ، وأن يملأوا الفراغ الناشيء في مجال الأدب الجديد من كل أنواعه  
وتوالت المقالات حول ما ينبغي أن يكتب وما لا ينبغي بين النافع والضار بين  
الواجب والنافل . فكانت فترة إختار انتهت بانتصار التيار الذي ضمّ تشوكوفسكي



والذي ينادي بالخرافة والحكاية بدلاً من القصص «الطبيعية» الجافة الخالية من كل طعم ورائحة بدعوى الواقعية والاقتراب من الحياة اليومية.

ونورد هنا بعض ما أورده خصوم الواقعية الطبيعية ضد خصومهم وبعض ردود الآخرين عليهم رغم ما يعرفه القاريء من انهزام الواقعية الطبيعية التي تنقل الطبيعة كما هي وغلبة الحكاية والخرافة في التعامل مع الطفل الصغير الذي يفهمها هي وحدها، فلنتنقل إلى العقد الأول من الثورة حيث يتذكر تشوكوفسكي حادثة قرأ فيها بعض الخرافات والحكايات. . وقد تجاوب الأولاد معه وأخذوا يصرخون: «استمر!» ولكن فجأة دخلت امرأة محمرة الوجه من الانفعال والهرولة وقالت:

— ما هذا؟ ماذا تفعل؟ نحن لا نفعل أبداً مهما كان هذه الأشياء! ثم جرت من يده إلى مكان ما بين انجراح الأطفال وبكائهم. وشرحت له بصوت المعلم أن الأطفال السوفيت لا ينبغي أن تقرأ عليهم الحكايات والخرافات بل «الحقائق» الواقعية المحضة، وعثا حاول أن يشرح لها أن الكتاب الذي كان يقرأ منه يؤكد للأولاد الحقيقة المحضة عن طريق القراءة وإن ضحكهم وقهقهتهم دليل ساطع على أنهم يفهمون الصدق والكذب وأن هذا يرفع من قيمة تقييمهم للواقع ويعمقها. ثم ليس اهانة أن نعتقد ان مواطناً سوفيتياً عمره تسع سنوات لا يفرق بين الحقيقة والخيال؟ ألا تريدون بهذا أن تحدث عداوة ما بين الكتاب والقراء الصغار؟ ولكن أحاديث الكاتب ومحادثاته لاقت أذناً صماء وكأنها لم تسمع قول لينين: «... إن الخيال سمة لها قيمة ضخمة جداً. . .» ولم يعلموا أن ماركس كان يحكي لبناته بلا نهاية الحكايات والخرافات، لأن كل هذا ينمي ويعمق الاحساس بالواقع كما يقول الكاتب ويورد الكاتب آراء علماء في الفيزياء وفي العلوم الأخرى يؤيدون الخرافة وذلك اضافة للعلماء في مجال الهندسة وإنهم كتبوا في ذلك الكتب والمقالات - ولكن المعركة ضد الحكايات تأخذ طابعاً جدياً بعد حلقة نقاش عن كتب الأطفال حيث سمى البعض تشيكوفسكي وما يمثله وانصاره أكبر خطر على الأطفال وكتبوا ناقدين بعنف لكتابه «من عامين إلى خمسة» وأن هذا الكتاب يُجدد العهد القيصري السابق وأعوانه وركائزه مثل طبقة الكولاك وينمي الأطفال برجوازيين ضيقى الأفق. وقد

طالبت احدى المقالات الآباء وأولياء الأمور:

١ - بالآ يقرأوا قصائد الشاعر على الأطفال

٢ - وبأن يحتجوا على طباعتها ونشرها

٣ - وبدعوة رياض الأطفال بموسكو لعدم قراءة أعمال الكاتب .

ولم ينصلح الحال نهائياً إلا في الخمسينات بعد أن أصبح المجتمع يتنفس الهواء النقي ، واختفت «منظمة الثقافة البروليتاريا» و«الجمعية الروسية للكتاب البروليتاريين» اللتان تميّزتا بضيق الأفق نهائياً. ويورد الكاتب أثناء هذا الفصل قصة طريقة حيث أن احدى التخصصات في أدب الأطفال ولكن من ذوات الاعتقادات البالية قد ربت ابنها على الواقعية المحضة ولكنه تمرد لأن أداة عقله لاستيعاب الواقع في هذه الفترة هي خياله الجامح الذي يحول كل ما أمامه إلى شيء آخر مفهوم لديه غير عابئ بأمه. ومن المفرح، يقول الكاتب، أن المقالات التي تمجد الحكايات الخرافية أخذت تظهر أكثر فأكثر ومن مختلف انحاء الاتحاد السوفيتي من أوكرانيا وأذربيجان وأوزبكستان ومن الصين ورومانيا وألمانيا وفرنسا .

ومن ثم عندها يبرز السؤال المنطقي التالي: أليست هذه الحكاية أو الخرافة المعينة بالذات مضرّة في حدّ ذاتها. وهذا سؤال خطير سنعود إليه في نهاية المقالة حول قصائد تشوكوفسكي نفسه. وفي هذا المجال يكتب الكثير من المواطنين السوفيت من العاصمة موسكو ومن روستوف على الدون وأيرتورج ومدينة جوركي لكي يعترضوا ويرد عليهم الكاتب بوجهة نظره الحكيمة التي لا توافق على أن الذئب أو الثعلب أو غيره من الحيوانات المتوحشة أو الهوام مثل البعوض وغيره إذا كانت تؤدي دوراً إيجابياً فإن الأطفال سينظرون إليها بعطف طبيعي يجعلهم غير قادرين على التخلص منها في الحياة اليومية ووجهة نظره هي كالتالي: «ان مهمة الراوي مختلفة فهي تنحصر بأي ثمن في تربية الانسانية في الطفل وموهبته هي إثارته ونقل الفرح الذي يعانيه شخص آخر للطفل نفسه وكأنه هو المعني» والراوي مهمت بأن يتعلم الطفل بخياله منذ نعومة أظفاره مشاركة الآخرين مُتخيلين من الناس والحيوانات بحيث يتخلص من أسار الإطار الضيق المتمركز حول ذاته وأنانيته واهتمامه وعواطفه. والطفل فعلاً يقف

عندئذ في صف المهانين والمجروحين والطيبين والشجعان .

كل هذا أصبح في طي الماضي وأصبح المسئولون في اتحاد الكتاب لهم نظرة جديدة طازجة لهذا الموضوع وهم لا يبالون أن يمتطي الأبطال ظهور القطط أو الذئب أو الطيور بدلاً من الأحصنة وأن يركبوا بساط الريح أو الحصان الطائر .

### قصائد شعبية

في الفصل الرابع الذي بعنوان «سخرات غير سخرية» يواصل الكاتب دفاعه في مجال القصائد الشعبية وغيرها ويقوم بحمايتها من المتهمين عليها ويورد أمثلة من الفولكلور الانجليزي وذلك ضمن ما يورد ويضيف إلى ذلك أمثلة من الفولكلور الانجليزي وهي كلها تعج بالخرافات فمن الخرافات الالمانية يورد الكاتب :

من سمع بهذا وأين؟

من سمع بهذا وأين؟

بأن تلد الدجاجة ثوراً

وأن يضع الخنزير بيضة

وفي عالم الخرافة هذا يمكن أن يتحول كل شيء إلى نقيضه !

إذا ركب الفرس فارسه

وإذا صار العشب يأكل البقرة

وإذا أخذت الفئران تصطاد القطط

وإذا أصبحت الرجال نساءً

فإن العالم سينقلب رأساً على عقب .

فالعالم هنا فعلاً ينقلب رأساً على عقب . ولكن الطفل لأسباب لا ندرك كنهها ينجذب الى هذا العالم حيث يجري الكسيح وتشتعل المياه ، والأحصنة تتركب على الخيالة والبعض يأكل الأحذية بدلاً من الخبز . وقد أجهد تشوكوفسكي ذهنه لمعرفة فائدة ومغزى هذا العالم «المقلوب» الذي ظلّ الشعب يؤلفه مئات السنين ولم يجد حلاً

إلا بعد جهد جهيد وبفضل حفيدته ذات الستين . فالطفلة نفسها أخذت تقول : إن القط يعوي وأن الكلب يموء وأن الحمار يصهل . . . وكان هذا بالنسبة لها شيئاً مضحكاً جداً، وكانت هذه أول النكات في حياتها وقد وجدت مسلية جداً فجارها الكاتب . فهي بهذا قد جرّبت أول لحظات الأضحاك في حياتها البادئة لتوها . ويستخلص الكاتب أن هذا «العالم المقلوب» موجود عند الطفل نفسه وأنه قادر على خلط الأحاسيس والأصوات مع شعوره في نفس الوقت بالواقع ومن هنا ينتج احساسه بالمضحك . وأن كل هذا ناتج عن رغبة الطفل في اللعب الذي يعني بالنسبة له الكثير الكثير والذي يصاحبه منذ اليقاع حتى وقت طويل لاحق . وقلب الأشياء مثل انطاق مالا ينطق وجعل السمك ينمو في الغابة وجعل العمي يرون والبحر يشتعل بالنيران كل هذا ليس غريباً على ذهنية الطفل ويمكن استعماله لشحن مخيلته أكثر ونحن قد نجد في أكثر القصائد بعداً عن المعنى معنى ما يستوعبه ذهن الطفل وهو مفيد له فالطفل لا ينسى لحظة وهو يلعب الواقع المحيط . فلا يوجد طفل يأكل «الكحكة» الذي صنعه من الطين ، وهو يستعمل كل ما في حوزته وما يقع في يده لزيادة حصيلته من المعرفة عن العالم حوله .

وحين يتناول تشوكوفسكي القصائد التي يكتبها الاطفال أنفسهم أحيانا يجد أن بينها الكثير الذي يتحدث عن البسطاء والمغفلين والأبطال السليبين وتحيره الظاهرة هذه فهي موجودة حتى في الآداب الأجنبية كالآداب الانجليزي ولكنه يخلص في النهاية إلى أن هذه القصائد عن العالم «المقلوب» تمنح الطفل ثلاث ميزات هامة :-

١ - فهي تمنحه الفرصة ليقول أنه ليس مثل هؤلاء الذين خلقهم بل هو أرفع ولا يمكن أن يرتكب أخطاءهم ولا أن تكون له نواقصهم .

٢ - يزداد الطفل تقديراً لنفسه لأنه يستطيع أن يخلق ويبدع .

٣ - يتقبل الطفل الثناء ممن حوله مما يؤكد ذاته كشخصية مستقلة لها كيائها الخاص فالأطفال يحبون الثناء .

٤ - وتضيف منحه الفرصة للبهجة .

ويطالب تشوكوفسكي في النهاية بأن تدرج هذه القصائد «المقلوبة» في ما يقرؤه

الأطفال فهي لن تسبب لهم أي جرح نفسي أو معنوي بل العكس وذلك رغم قلبها للتصور الطبيعي للعالم حولهم .

في الفصل الخامس يتناول الكاتب طريقة الأطفال في نظم القصائد . فالطفل في منظوره يستوعب الكلمات التي تحويها اللغة بطريقة التنظيم بالمعنى وكل كلمة لها «قرين» أو كلمة موازية وهي غالباً ما تكون معاكسة ففي السنة الثالثة يحاول الطفل أن يجد للكلمة التي يعرفها كلمة مناقضة أو مشابهة ومناظرة، مثلاً:

— هذه هي الدجاجة راكدة .

فيسأل الطالب

— وهل توجد دجاجة راكضة؟

فمثل هذه الألاعيب تخفف على الطفل استيعاب اللغة . ولكن إيراد أمثلة على هذه اللعبة الطفلية هوشية من رابع المستحيالات فهي مرتبطة بمبنى اللغة الروسية نفسه وليس من الممكن ترجمتها في هذه العجالة ذلك أنها تعتمد على التلاعب بالكلمات الروسية وإيجاد نظيرها أو نقيضها من حيث الشكل فلنكتفي بما أوردنا هنا ونضيف عليها فقط كلمتين: أطرش . أسمع - كفيفة - صبيان - كُبران رُشدان (بدلاً من كبار وراشدين) . وسكاكين - ملاعيق (ملاعق) والأطفال يكُونون من الكلمات التي يَخْتَرعونها قصائد مثل ما يفعل الكبار أحياناً واللغة العربية فيها مثل هذه الثنائيات التي تحمل قافية ولا تحمل معنى مثل «لو: حرف شعبطة في الجو» أو «أمورة أو حَسَن: لا قيد ولا رسن» وأن كنت أظن أن اللغة الروسية أكثر زخماً وامتلاء بمثل هذه الألاعيب اللفظية .

والأطفال عندما يتكلمون يرددون كلمات ذات قافية دون أن يدروا ولكنهم إذا فطنوا إلى ذلك فإنهم يصنعون قصائد أو يعتبرونها قصائد: وهم قد يدخلون مع أهمهم في قافية أو مطارحة شعرية!!

— ماما - تليفون

الطفلة - تلفزيون

ماما - بيتليفون

الطفلة - جرسون

الأم - ماجنتفون (مسجل بالروسية) - فيديوفون - الطفلة - تيليسكوب

الأم - ميكروسكوب الخ

وقد تستمر هذه اللعبة خمس عشرة دقيقة كاملة تُرهق فيها الأم طبعاً

والطريقة الأخرى لنظم الشعر عند الأطفال هي مجرد ايراد حروف النهاية في الكلمات: انتظار. انفجار. ستار. مختار. سوار. عُفار. منار. وهكذا دواليك وهذا يساعد على استيعاب اللغة الأم بطريقة فيها من اللعب أكثر ما فيها من الجِد والهدف.

والعملية الشعرية عند الطفل تبدأ حتى قبل سن الثانية كما يقول المؤلف مصححاً رأي باسترناك حول أن الأطفال يدخلون الى عالم النغم بعد الثانية. فكلمة ماما نفسها هي كلمة منغمة تتكون من مقطعين ما - ما. ومعظم كلمات الأطفال مكونة بهذه الطريقة مثل با - با، ما - ما، دادا، باي باي، كو - كو والمقطع الثاني هو ترديد للمقطع الأول حرفياً. وحتى الرضع فإنهم يرددون مقاطع مثل با - با، بو - بو، أم - أم، تا - تا والمقاطع الشعرية لا تأتي إلا أثناء اللعب ويتم ترديدها بلا توقف وهي وأن تكون غالباً لا تحمل معنى واضحاً إلا أنها تساعد على الإيقاع والنغم.

وقد يردد الأطفال أشياء لا يفهمونها فهي آتية من قرون بعيدة ومن واقع اجتماعي تاريخي اندثر، وللتقريب نورد قصيدة تردد في بعض البلاد العربية دون أن يعرف أحد متى:

أ - يا أم أحمد

دقي المحلب

أحمد غائب

في الركائب

جانا كلب

سنونه صفر

حلب الناقة  
في الشنقاقة  
ب - يا أيدي  
سبليني  
حطيني في الابريق  
والابريق ملان حجبات «أحجة»  
بابور بلدي أم رقبة جات

### يولد شاعراً

ونستخلص مما يكتبه المؤلف أن الطفل يولد شاعراً منذ نعومة أظفاره وأن علينا أن ننمي فيه هذه الملكية ونشجعه على أن يتطور باستمرار في هذا الاتجاه ما دامت توجد عنده القابلية للتعامل مع الكلمات والموسيقى وذلك بقراءة الشعر الشعبي والملاحم الشعبية والشعر الذي يتلاءم مع تطوره وهو يورد قصائد كثيرة نجح الأطفال في تأليفها رغم صغر سنهم مع أن الكبار في سن الأربعين غالباً ما يفقدون الرغبة في قراءة الشعر «دعك من تأليفه».

وفي نهاية الفصل يقدم المؤلف النصائح التالية للشعراء الذين يكتبون للصغار:

- ١ - أن يكتب هؤلاء شعراً مكوناً من صور لكي يستطيع الرسام أن يجسده.
- ٢ - ألا تكون القصيدة محتوية مثلاً على صورة واحدة فهي لن تصلح بل أن تقوم على تعدد الصور وعلى التنقل من حالة إلى حالة.
- ٣ - على هذا العمل الكلامي أن يكون في نفس الوقت غنائياً أي لصيقاً بالنفس

- ٤ - والنصيحة الرابعة هي أن تكون القوافي متحركة غير جامدة.
- ٥ - يجب أن تكون الموسيقى في القصائد على مستوى عال
- ٦ - وعلى القوافي أن تكون قريبة من بعضها البعض.

٧ - وعلى القوافي أن تكون هي أساساً حاملة المعنى في البيت

٨ - وأن يكون البيت وحدة قائمة بذاتها.

وهكذا ننهي استعراضنا لهذا الكتاب الممتع بعنوان «من الثانية إلى الخامسة» وقد أسهبنا في وصفه لأن مثل هذه الكتب التي تفتح لنا الطريق إلى عالم الأطفال وتبين مقدراتهم ونموهم الفكري وقدراتهم الهائلة كتب ليست كثيرة في العالم ولهذا كان الجهد الذي بذلناه في تقصي صفحات الكتاب واستعراضها.

وفي الختام نقول أن قيمة الكتاب هي في تلك الملاحظات القيمة التي يوردها الكاتب وفي مقدرته على تحليلها وفي حبه للأطفال وفي محاولته إعطاء شعراء السوفييت نصائح لكتابة الشعر للأطفال. غير أن الكتاب غير علمي تماماً بل هو كتاب يكتبه شخص له أطفال وأحفاد وأحفاد أحفاد راقبهم بحب وتسلم رسائل من آباء آخرين وأمهات فخرج هذا الكتاب الدرة نسيج وحده.





شهر  
محمد  
أحمد  
المشاري



بَخِيلَانَا خُلِقَتْ وَبِالْفِكْرِ  
فِي الْجَوِّ أَوْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ  
حَتَّى بَلَغْتَ الْقَصْدَ فِي يُسْرِ  
وَرَتَعْتَ فِي أَيَّامِهِ الْغُرِّ  
فَمَضَتْ بِحُلُوِّ الْعَيْشِ وَالْمُرِّ  
كَالْبَذْرِ أَوْ كَالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ  
مُتَقَدِّمًا فِي صَفْحَةِ الْعُمُرِ  
يَعْصِي عَلَى السَّرَاقِ وَالذَّهْرِ  
كَالتُّبْرِ بَلْ أَعْلَى مِنَ التُّبْرِ

الذِّكْرِيَّاتِ رَوَّاحِلُ تَغْرِیْ  
عَبْرَ الزَّمَانِ بِهَا نَسَافِرُ لَا  
كَمْ ذَا بَهَنَ حَثَّتْ رَاحِلَتِیْ  
فَأَظْلَمَ مَا شِئْتُ مِنْ زَمَنِ  
يَا رَبِّ أَيَّامٍ إِذَا طُوِیَتْ  
تَزْدَادُ حُسْنًا كُلَّمَا ابْتَعَدَتْ  
يَلْقَى الزَّمَانُ إِذَا مَضَى قُدَمًا  
كَنْزًا مِنَ الذِّكْرِیِّ بِأَنْفُسِنَا  
كَالدُّرِّ بَلْ أَهْبَى نُسْرُهَا

# صباحات النور

شعر: يوسف حسن

ما للصباحات تأتي خفافاً، كما النورسُ الغض  
وترتد متعبةً . . وقبل الظهيرة تقعي على الأرصفه  
ما للصباحات حين تحطُّ على شجرِ الروح، كي تستريح قليلاً  
تسألنا

لماذا نقايضُ مثل العصافير

حُباً بحَب

وماءً بيباسةٍ

وصوتاً مريباً بأغنيةٍ

لماذا تحوم على رأسنا الطير

نسرع في الخطو . . والصبح في اوله

شهادة

ورأيتُ، كان البحر مخموراً وكالأعمى يدب به الدوار

ورأيتها، خرجتُ الى النوق بالمقهى وأرصفة المساءات الجميلة والخضار

وسمعتها، مالي وما لهمو - للبيت من يحميه - لي مالي

وما للآخرين الى الدمار

للموت يا بيروت يا صبرا وشاتيلا - ويا نهرا تدافع من دماء الطف  
سال من الحاجز والحجارة والجدار

اسفاف

أسففتُ عفواً أيها الشعراء، اذ سَفَّتْ غزِيه  
وحللت من ثوبي - وقد حَلَّتْ، لا شيء يسترني، طفقتُ يسومني اهلي  
وتصلبني العشيرة في جذوع النخل مكسوراً ومحلول الازار  
اسففتُ بل غنيتُ بل أعنى بكيتُ - تملكنتني شهوة في الرقص والفرح الموارب  
كانت معي - قالت لنا نبكي - وقلت لنا نغني  
ولنا لنا في الحلم ما للآخرين من التمني  
تمتتُ ما لم تفهم الفصحى ظللتُ متمتاً - وخرجت عن سميتي - هزرتُ السدرة  
الحبلى

وكان الصدر مكتظاً . . . أحبيتها تهذي وأسمع ما تبوح به الجميله  
القيت ذاكرتي الى النسيان - ضج الصمت في روحي، وصاحت بي جموع النخل  
هزنتي الرياح المستحيله  
أسففتُ، عفواً أيها الشعراء  
من يقوى يطفف وردةً  
هتفت بصبح الطالعين من السنابل  
هتفتُ، فصَفَّق في كئامه القرنفل، قامت قيامتها حشود الورد  
يسبقها البنفسج والمتوجة اليام



# مَعْرِفَةُ وَوَلَدِ

إلى الشاعر فتي سَعِيد

شعر: حنّح الباب

بعد فراق طويل التقيته في مقامي بمدينة وهران الجزائرية عام ١٩٨٥،  
وحين ودعته سألني: «متى تعود للوطن؟» ثم قال: «إلى اللقاء».. .  
عدت لم أجده... .

«سنلتقي»

لكننا مدينة الحلم التي اشتيتها  
عادت لنا

مدينة المنفى العقيم

«وهران» بيننا

جسر أشلّ

لحن مُريب

ومصر أنت.. أنت لا تملّ

صباية المقيم.. أنت لا تملّ

هديلك الغريب

يا بليلي الحبيب  
ترابنا الأثير لا يجيب  
وَقَعَ خطانا الحلماتِ .. صرخةً الوجيب  
ترابنا الأثير  
غرامنا الأول والأخير

\*\*\*

مفارقاً أتيت  
معانقاً نأيتُ  
أيُّ شتاتٍ جمعك؟  
وأي جمع نترك  
يا قمرى العليل  
أدمنتَ ما حُرِمْتُ  
وعِفتَ ما أدَّخَرْتُ  
من زادك القليل  
في الزمن القتيل  
يا سهري الكليل

\*\*\*

الشُّهْبُ التي هوت بلا أوان  
الشُّهْبُ الغرقى  
والمُدُنُ الألوان  
المُدُنُ الحمقى  
تحاطفتكم في الأعالي والجسور  
أوبئة الأزمنة المفارقة  
«نُدَاهَةٌ» في التُّرَعِ الآسنة الغرور<sup>(١)</sup>

رديفكم يوم ارتحال القافلة  
ينخر في أصلابكم، أصواتكم، أحلامكم  
ضجيعُها، نجيعُها . . موق بلا أكفان  
بلا أوان

في المدن التي غوت  
وأدركتها حرفة المراهقه  
لن يرجع الطير الجسور  
الموج حال . . النخل والجميز والكافور  
ساقية معصوبة تدور  
طير أسير

لن ترجعوا  
ولن تقيموا . . حسبكم أشباحكم  
تنُّ أو تنور  
الشعر حلم  
الحلم حفتنا شعر  
والمجد للشيطان  
في المدن الأفعى  
في المدن الألوان

\*\*\*

أبكيك للفجر الذي لن تشهد  
لأنك احتमित بالمساء  
مشملا برديته  
وشاريته  
وبت توري شمعته

مرتباً بشارته  
مهلاً : يا قوم « مصر لم تنم »<sup>(٢)</sup>  
هذا الدجى  
من أطلعه  
شمسا لنا سوداء؟  
هذا الغمام المجتلى  
من روعه  
والورد يشكو الظمأ؟  
والنجم من ذا ودعه  
لما هوى منطفئا؟  
محتضنا ربابة الشاكي الفصيح  
في زمن القروح  
مواجذ الصوفية المهاجرة  
إلى شفير الروح:  
«مولاي إلا الشعر»  
تشدو عذابات النجوع  
بؤس جصور الليل والصقيع  
بأس القلوب النخره  
والحمر المستنفره  
على بقايا قسوره  
ولم تزل مُرثماً مهُوماً  
على سفوحنا المهيضة الجناح  
ترثى مدائن الدخان والدُمى  
تحلم بالصباح أنجما

بالشفق الوستان منجما  
تلثم وجنتين  
ضفيرتين  
لطفلة ذابلة العينين من  
بنات ريفنا الذي هجرت  
كما هجرت الوطننا  
وعُشْنَا المرتَهْنَا  
تلعب بالأصداف  
تُطِيرُ اليمائم الشجيّة الطواف  
تطارح الحمام المطوّقه  
والخضلات النزقه  
مطارداً بالذكريات الأرقه  
يا مَلِك الأعراف  
تحلم بالمستضعفين رُكَّعاً وسُجَّداً  
بالعائدين غدا  
وبالحسين مددا  
يا مَلِك الأطياف

\*\*\*

يا كم تُرَى غَنِيَّتْ  
للشمس خلف الشمس تحت المنحنى  
لا أنت تشكو الوهنا  
ولا نملُّ نحن وَجداً . . شجنا  
وما رميتَ إذا رميتَ إنما  
مستوحشا صَبَّوْتُ



حتى يَكُرَّ عَقْرُبُ الزمان  
 ويلتقي الجمعان  
 كان الذي ما كان أنت ما جنيت  
 وما اشتفيت  
 سيَّان إن رغبت أو رهبت  
 مستمسكا بالعروة الوثقى  
 زهرتك السحرية المضيئة  
 كان الذي كان الهوى كان البلى  
 إن البلى إن الهوى سيان  
 كان الذي ما كان  
 في عُرْف هذا العصر  
 إن العصر والإنسان خسر  
 تاريخنا الحلم الأغر  
 نفاية المائدة المتوجّه  
 إكليل هام الشعب ذكرى معركه  
 ليل الجماهير وشمس المردّه  
 تاريخنا ملتبس الدليل بالأطلال والقمم  
 محتشد النصور والرمم  
 «أبطالنا معذبون  
 معلّقون فوق حافة القدر يصارعون هُوةَ الظلام  
 أدوارهم صخّابة قصار  
 يطل في مرآة بدئها الختام  
 ويُسَدِّل الستار»<sup>(٣)</sup>  
 أطفالنا أكبادنا منفطره

رهن لبالنا التي  
 يسير فيها من يسير غير أن من يَظِلُّ  
 يغشاه وحشُ المَدُن المندثره  
 كواكب منحدره  
 آلهة متحره  
 يغوص بَحَارتنا الفرسان  
 ويعتلي القرصان يقر في نُخاعنا المخاتل الجبان  
 والجرح لا . . لا يلتئم  
 أشباح موتانا بلا أكفان  
 موت بلا أوان  
 ومن يَهْن يستعذب الهوان<sup>(٤)</sup>  
 ردَى تريد هذه الجموع  
 للراتعين الفَجَره  
 سقيفةً إلى الجياد المتعبه  
 كأس حليب لرضيع  
 كراسهً يشتاقها اليتيم  
 وشعلةً للقافله  
 تهدي النجوم الأفله

\*\*\*

يا شجن الناي الغريب في السحر  
 يا شهقة الوتر  
 خَيِّطَانٍ من نجيع  
 يا عاشق الربيع  
 ماذا أقول؟

أبكىك؟ أم أرثى الضحى؟  
أرثى رفاقي في الأفول؟  
أبكى الفصول؟  
ماذا تقول؟  
نعنو لشذاذ الثرى  
نحنو على ظل النبي المنتظر  
ماذا نقول؟  
لنحترق  
كي نلتقي  
على مشارف الشفق  
طيرين أو طيفين  
غصنين أو نجمين  
طفلين من حجر  
صخرة إبراهيم صرخة النجاة

\*\*\*

لا تجهشوا بدمعكم  
قوموا له  
أراه بينكم  
«لأبد أن نعود للوطن»  
فتحي سعيد

الهوامش :

(١) النداهة في الميثولوجيا الشعبية بالريف المصري عروس من بنات الجن تسكن في أعماق الترع ( فروع نهر النيل ) ، وتشرب برأسها وهي في أبهى زيتها ، منادية من يجلس من الفتیان وحيداً على شاطئ التربة أو

يسبح في مائها، حتى إذا استجاب لندائها ووقع في شباك المراودة غاصت به تحت المياه، فلا يطفو بعدها أبداً.

(٢) «مصر لم تنم» و «مولاي إلا الشعر» عنوانا ديوانين للشاعر الراحل.

(٣) هذا المقطع من قصيدتي «أغنية وداع إلى همنجواي»، ١٩٦١.  
تضمن لييت أبي الطيب المشهور:

من يهن يسهل الهوان عليه      ما لجرح يميت إيلام



## قصة قصيرة



بقلم : سوريال غبد الملك

ذات صباح باكر نزلت بهم مصيبة  
أكبر..

كان القائد ومساعدوه يتفقدون  
المنطقة.. وفجأة.. بقديفة حاسمة من  
المجهول.. تطاير القائد أشلاء في  
الفضاء، جُمعت الأشلاء في صندوق  
خاص.. قيل إنه وصل في نفس اليوم  
إلى مطار القاهرة.

في نوبة الحراسة الليلية أزاح جدار  
الوجوم بالحديث إلى أقرب زميل:

— إن فَرَق الاستطلاع تمسح أعناق  
المنطقة ليل نهار دون أن تعثر على أثر

لعدوّ، فمن أين تجيء هذه القذائف؟  
ترحمّ زميله على القائد ودعا له بالجنة ثم  
أضاف:

— في هذا المعسكر الملعون خسرنا  
عشرات الجنود والضباط دون أن  
نخوض معركة واحدة، هل جئنا إلى هنا  
لنموت بلا ثمن؟!

— بل قل ما الذي جاء بنا إلى هنا؟

— الشيطان يا صديقي، الشيطان وراء  
كل المصائب.

تذكر سؤالاً وجهته له إحدى تلميذاته.

ذات يوم :

— أستاذ!! أليس الله أقوى من الشيطان؟

— بلى، الله أقوى من كل المخلوقات.

— ويكره الشيطان؟

— بالتأكيد يكره الله الشيطان.

— الحمد لله متشكرة جداً يا أستاذ.

حدجها بنظرة مندهشة متسائلة،  
فأضافت بينما ابتسامات شقية ترف على  
شفاه البنات.

— ما دام الأمر كذلك يا أستاذ فإن الله  
يوما سيقول الشيطان.

\*\*\*

في اليوم التالي صدرت الأوامر  
باحتيال قمة الجبل القريب، خطر له أن  
يقول لقائده: «إن جنودك يا سيدي  
ليسوا زواحف ولا قردة ليتسلقوا جبلاً  
كهذا»، لكنه انتبه في الوقت المناسب..  
إلى أن تهمة التمرد في الميدان ليس لها إلا  
عقوبة واحدة.. هي الإعدام رمياً  
بالرصاصة وعلى الملأ.

\*\*\*

ها هو صاعد مع هبوط الليل في  
طابور طويل، في المقدمة البعيدة فرقة  
استطلاع.. ثم رجال الصاعقة...

فحاملو المدافع والمهات، على ظهره  
«زكية» الميدان الثقيلة.. وعلى كتفه  
سلاحه الآلي، ضاقت بهم الشباب  
الصاعدة وتلوت.. ومرات عديدة  
غارت بهم إلى أعماق رهيبة الغموض قبل  
أن تعاود الصعود، ها هي سطوح  
شديدة الانحدار.. وتواءات صخرية  
هائلة تعترض السطوح!! وما هو دون  
خبرة سابقة يقفز إلى أعلى.. وينط إلى  
أسفل.. يطير بأحماله من صخرة إلى  
صخرة خلف الرفاق.. أمهر من لاعبي  
السيرك وقرود «الجبالية»، تتكاثف  
الظلمة هنا وتحف هناك، نداءات  
الصحاب أماما وخلفا مجرد همهمات  
غاضبة، والصمت قدر رابض بملء  
الخلاء، وهنا درب أرحم انحداراً أعفاه  
من قسوة اللهات!! ترى!! إذا وقعت  
هنا أسيراً.. هل سيقيدون قدمي  
بالحديد مثلما فعل الغزاة في بور سعيد؟!  
لكن اليمينين لا بد أن يكونوا أرحم بي  
من الغزاة الحمرا! فهم على الأقل عرّب  
مثلي.. يصلون الصلوات الخمس..  
ويهتفون مع كل صلاة كما أهتف بأن الله  
أكبر.....

كان نهارا خريفاً بورسعيداً مثقلاً  
بهوان الهزيمة، استتب الأمر للغزاة، فهدأ

زئير المدافع، اتفقنا على أن نخرج من  
مخبأ المدرسة فرادى قبل أن تموت  
جوعاً.. ثم نلتقي في «الشاليه» الخشبي  
الذي نسكنه عند البحر.. حيث مخزون  
الأرغفة والجبن والسمك والفاكهة،  
تسللت لصق الجدران حتى اقتربت من  
شارع البحر، يا للفاجعة!! كانت  
أسراب الموج مكشوفة لعيون المدينة..  
وكل ما بقي هناك من «شاليهات»  
الشاطيء هشيم أخشاب سوداء  
متناثرة!!

وفجأة.. طوقني أذرع الغزاة،  
تلاحقت أسلثتهم بالانجليزية والفرنسية  
لكن الخوف شلّ لساني، تحسّس أحدهم  
عضلات ذراعيّ وقال بعربية صدئة  
حاقدة:

— أنت فدائي.. إمش قدامي لحد  
مركز الفدائيين،

قال هذا ودار فلكز عمودي الفقري  
بكعب مدفعه الرشاش، أجبته مرتعداً  
وعيناى على المدفع الآخر المصوّب إليّ  
من الأمام:

— أنا مدرّس.. ومدرستي في آخر  
الشارع.

— فيه مدرّس «فتوة» بعضلات يا ابن  
ال...؟!

كان اللفظ، في غاية الوقاحة والتجنيّ  
على شرف أمي، جذبني بوحشيّة  
وسلمي لصهيوني آخر، ساقني الآخر إلى  
سطح عمارة مجاورة، خلف سور السطح  
كان هناك غزاة آخرون يصوبون  
مدافعهم إلى كل الشوارع المحيطة، قيّد  
الولد قدميّ بسلسلة حديدية.. ثم  
أمرني بأن أسليهم بالرقص البلدي،  
ارتقيت على الأرض أتضحك عذاباً  
وأملأ في أن يهلوني، صوّب الولد  
مسدسه إلى صدري وأعطاني مهلة ثلاث  
ثوانٍ لكي أبدأ الرقص، وفي جديّة  
مجنونة بدأ يعدّ (وان - تو)، سبقته قبل  
أن ينطق بالثالثة ونهضت، رفعت ذراعيّ  
كما يفعل الراقص، لم أكن قد فعلتها أو  
أحببتها في حياتي، لذلك جاءت الرقصة  
بالقيد في قدميّ أشبه بحركات القردة،  
بإشارة من يده أوقفني، فتح الحقيبة  
المعلقة في حزامه وناولني منها فرشاة  
لحلاقة الذقن، ثم شوح بذراعه في كل  
اتجاه صارخاً فيّ:

— بسرعة اكس السطح، بسرعة!!

كان السطح الواسع مُترباً بأتربة  
كثيفة.. وفي أرجائه كثير من القمامة  
والمخلفات والحصى، كيف أكنس كل

هذا بفرشاة الخلاقة؟! تعجلني الولد  
بصفعة رَجَّتْ رأسي وعيني.  
— بسرعة يا ابن ال . . .

عاد الإبصار إلى عيني مترنحاً، عبر ما  
يشبه الضباب، رأيته يسحب مسدسه  
مرة أخرى.  
— ما رأيك في شعب الله المختار؟

الموت يقترب، واليأس من الحياة  
حُبٌّ إلى القتل، ولكن كيف وأنا أسيرُ  
مقيّد؟! اجتاحتني كراهية هائلة لكل من  
حكم مصر من الفراعنة، وبخاصة ذلك  
الفرعون الغيبي الذي سمح لهم بالخروج  
خلف موسى، تجسّد أبي وأمي وإخوتي  
أمامي . . ضارعين إليّ ألا أموت غريباً  
في بور سعيد، أعاد الولد السؤال الحاقداً  
مقرباً فوهة المسدس من صدري، أجبْتُ  
بكلمات منكسرة النبرات:  
— الله اختار كل الشعوب .

قهقه الولد قهقهة كالفحيح، ثم  
فاجأني بركلة عاتية أطارت الفرشاة من  
يدي وطرحني بعيداً، نهضت أتحسس  
نار الألم بين فخذيّ وأتقافز بالقيّد  
لأستعيد الفرشاة .

— وما رأيك في عبد الناصر؟ وفي تأميم  
القناة؟

أجبت وعيناي حائرتان بين عينيه  
والفرشاة:  
— أنا مدرس، لا سياسي ولا عندي  
بطاقة انتخاب .

وأقفيت مسلماً أمري لله . . ورحت  
أكنس السطح بالفرشاة ودموع المهانة .

\*\*\*

أفاق على وجهه يتلّ . . وقطرات ماء  
متلاحقة تتساقط من رأسه، كانوا قد  
نبّهوه إلى ذلك قبل صعود الجبل، إذن  
فهو الآن يخترق السحاب!! توقف،  
ارتجف لاختلاط الحقيقة بالرؤى، ثم  
راح يحفف عينيه تباعاً من ماء السحاب  
ويسعى خلف الرفاق .

ومع إفلات الشمس، من تحت أقدام  
الجبل وجد نفسه يقف خلف مدفعه فوق  
السحاب، ضاع السفح من عينيه خلف  
الضباب، وثمة طيور غريبة تتابع  
انطلاقاً من خفايا الشعاب . . تعود  
فتحوّم محدّقة في شوق نحو مساكنها . .  
ثم تشق الفضاء هبوطاً وصعوداً ودوراناً  
في الخلاء الواسع .

\*\*\*

• عندما حلّ المساء . . كان الجيش قد  
أقام لنفسه فوق الجبل معسكراً مُعدّاً



للحياة والقتال . . وللموت أيضاً، ففي أحد الأركان البعيدة كان بعض الجنود قد أعدوا مقبرة تتسع لجثث كل الرفاق .

وها هو الآن في نوبة حراسة ليلية عند قمة مُنحدر، عقارب ساعته الفوسفورية بليدة الخطو!! وشيثاً فشيثاً يتلفح الكون بمزيد من الدهول والصمت . . إلا من همهمات بعيدة غامضة بين التماعات النجوم، حاول أن يبدد الوحشة بالحديث إلى أقرب «مدفعي» . . لكنَّ طول المسافة وأوامر الميدان مرَّت بينهما الحديث، عاد إلى التحديق في غَبَش المنحدر . . لا جسَّ هناك ولا خبر، ليس إلا الجبل جثة هائلة داكنة بلهاء!! والفضاءات أكثر هولاً وارتياباً من ديب السُّحب!! هل جئنا إلى هنا غزاة كالغزاة؟! يا للعار!! وتذكر قول شاعر عظيم يقول: «كان بوذا هو الذي غزا العالم لا الإسكندر» .

هفت روحه إلى ظلال شجرة الزيتون . . حيث قرأ أحلى ما قرأ على مرأى من الخضرة المترامية، ثم احتوته ذكريات القرية تماماً . . ، عندما طَبَّقوا قانون الإصلاح الزراعي كان حظ قريتنا تغيساً!! لم يكن هناك «باشوات» توزع

أرضهم على الأجراء، أكبر مالك في بلدنا كان العمدة بفداديته الخمسة، لذلك ظل فقراؤنا فقراء ومعدمونا معدمين، ولم يعد لأهل قريتي أمل في الاشتراكية إلا في الحياة الآخرة .

أحسَّ بديب أقدام «داورية» الليل، تبادل معهم كلمة السرَّ من بعيد ثم سمح لهم بالتقدم، قائد الداورية يبحث عن موجة معيَّنة في جهاز اللاسلكي الذي يحمله، على إحدى الموجات انطلق صوت مجلجل قادم من «صوت العرب»، المذيع يقدم لحفل ساهر بسينا قصر النيل، يصف بدقة سرور الحاضرين وأزياء الحاضرات . . أضواء المسرح وألوان الستارة، والآن سيداتي سادتي . . بلبل الشرق في رائحته الخالدة، وصمت المذيع لحظات للإثارة، ثم انفجر بلهجة البيانات العسكرية . . معلنا عن الأغنية التي يقسم مطلعها على أننا سنكيد «العُزال» .

— كله تمام يا عسكري؟

— تمام يا أفندم .

ورحلت عنه الداورية بصحبة المذيع والبلبل والعُزال . . حتى غابوا جميعاً في قلب الظلام، عاد يستجير

بالذكريات . . .

ذات يوم كان مشرفاً على رحلة مدرسية، الطبيعة على طول الطريق من بور سعيد إلى القاهرة باعثة على عشق الأرض والوطن، طارت البنات فرحاً بزيارة الأهرام وأبي الهول، وفي حديقة الحيوان رُحْنٌ يقذفن إلى القردة بقرون الفول السوداني . . فتلتقطها القردة وتقرّضها كما يفعل الإنسان . . ثم تلتهم حبّاتها بينما عيونها متلهّفة على قرون جديدة، انتهى رصيد البنات من الفول فرُحْنٌ يجمعن ما تحت أقدامهن من قشور ويقذفن بها إلى القردة، لكن هذه اكتشفت الخدعة فتوقفت عن الالتقاط، تقدم قرد عجوز فأخرج يديه من بين القضبان والتقط قشرة . . ثم جلس بها القرفصاء في هدوء، وفجأة . . انتصب واقفاً على قدميه الخلفيتين وقذف بالقشرة فأصابت وجه البنت التي كانت قد قذفت بها إليه، ازداد صخب البنات فرحاً، وراحت القروود الأخرى تقلد القرد العجوز، صفقت البنات لذكاء القروود وتصايحن . . فصفت القروود وتضاربت أكف البنات دهشة فتضاربت أكف القروود، تعلق القرد

العجوز بقضبان القفص محذقاً في وجوهنا، بدا مثل شيخ حكيم وقور يستعرض مخلوقات غريبة، وعندما قلدته بقية القردة أصبح المشهد باعثاً على مزيد من الدهشة والمرح والخجل .

\*\*\*

اقتحم قلبه شوق طاغٍ إلى المدرسة والبنات والسُّبُور ودروس الفرنسية، لكنه انسحب من أشواقه سريعاً فقد لاحت لعينيه أشباح تصعد المنحدر، هناك من خلفها أشباح أخرى، بعضها اقترب كثيراً من قمة الجبل، اضطربت يدها على المدفع، لا وقت لأخذ الأوامر!! في لحظات كانت طلاقته قد حصدت عشرات الأعداء، وتابع جثثهم وهي تهوي متكسرة على صخور الجبل، لكن الأشباح الأخرى مجنونة الشجاعة!! إنها ماتزال تتلوّى وتواصل الصعود!! تعقبهم بطلقاته إلى أن جاءت الدائرية ومن خلفها قائد الموقع، حاولوا أن يبعده عن المدفع لكنه تشبث به في فرع لكي يطلق مزيداً من النار، أمر القائد رجاله بإبعاده بالقوة فأبعده، ارتقى يبكي ويصرخ ويحذّر من كثرة الأعداء .

\*\*\*

عندما هبطت أولى خيوط الفجر . .  
ومن بين فُرَجِ السحب الراحلة . . كان  
يحدق مع رفاقه في عشرات الجثث  
المتناثرة على السفح وحنايا المنحدر،  
استضاء الخلاء أكثر . . فرأى دماء تلتطخ  
الصخور القريبة، لكن الجثث البعيدة  
ظلت كالحة السّواد!! ترى! لماذا يرتدي  
اليمنيون هذا الزي الأسود؟!

مع تباشير الصباح كان هناك زملاء  
يستعرضون جثث القتلى بالمناظير

ويقهقهون . . فلم يكن القتل سوى  
قطيع من القردة . . خلا عليها السطح  
فاقتفت أثر الجيش بحثاً عن غذاء، لماذا  
قتل كل هذه المخلوقات المسكينة؟!  
وكيف نسي أنها كانت دائمة التسكع  
حول معسكرات السفح خاصة بالقرب  
من المطابخ؟!

أحسّ باحتياج عاصف إلى الارتقاء في  
أعماق النوم، لكنّ مندوباً جاء  
لاصطحابه إلى القيادة، سألته في



استسلام حزين :

— للتحقيق؟

— الله أعلم

لكن القائد استقبله بابتسامة هادئة  
وقال :

— مبروك

— أنا يا أفندم؟!

الحكومة قررت تسريح المدرسين من  
الجيش لأنه حصل عجز كبير في  
المدارس .

\*\*\*

وتحركت به الباخرة من ميناء  
«الحُدَيْدَة»، دقائق قلبه مضطربة بالفرح  
والشوق والأسى، ساءل نفسه وهو  
يواصل الصعود إلى سطح الباخرة: كم  
قتيلاً شربت الأرض دماءهم منذ هابيل  
المسكين؟!!

وفوق أخشاب السطح الخشنة ألقى  
بحاجياته جانبا، ثم رقد على ظهره  
متجولاً بعينه في أرجاء السماء . . شارداً  
خلف حلم تلميذته العظيم . . حالماً  
معهما بأن يقتل الله الشيطان .



قصة الكاتب الألماني : برتولت بريخت  
ترجمة : فريزة التبحار

عندما يقرأ المرء مؤلفاته، ويلقي  
كذلك نظرة على التقارير التي تتحدث  
عن ظهوره في المجالات العامة، فإنه لا  
يجد حقاً ما يمنعه من أن يعتبره رجلاً  
عظيماً. وعلى رغم ذلك ثمة قصة قد  
تزيد من إجلالنا له: إنها قصة معطفه.

من الضروري أن نعرف أولاً كيف  
وقع هذا الرجل في أيدي محاكم  
التفتيش. ذات يوم دعاه رجل ثري من  
مدينة البندقية، ويدعى موسينيغو، إلى  
بيته كي يعطيه دروساً في الفيزياء وفن  
التذكر. وقد استضافه على نفقته بضعة

جوردانو برونو عالم من مدينة نولا،  
كانت محاكم التفتيش الرومانية قد قضت  
في عام ١٦٠٠ بإعدامه حرقاً، بعد أن  
وجهت إليه تهمة الزندقة، وهو يعتبر  
عموماً أحد العظماء، لاسبب فرضياته  
الجريئة المتعلقة بحركات الكواكب  
فحسب، وهي فرضيات ثبتت صحتها  
منذ ذلك الحين، بل ولوقفته الجريئة أمام  
محكمة التفتيش التي قال لها: - «إن  
خوفكم وأنتم تعلنون الحكم عليّ قد  
يكون أكبر من خوفي وأنا أسمع ذلك  
الحكم».

شهور مقابل التدريس المتفق عليه . ولكن بدلاً من أن يأخذ دروساً في السحر، كما أمل، فقد أعطاه العالم دروساً في الفيزياء ليس أكثر. وهذا ما أثار استياءه الشديد، لأن الفيزياء لا تعود عليه بأي نفع . فندم أشد الندم على النفقات التي سببها له الضيف . ولهذا فقد طلب منه بلهجة حازمة أن يزوده بالمعارف السرية المرغوبة، التي لا شك في أنها في حوزة رجل على هذه الدرجة الكبيرة من الشهرة . وعندما لم يُجِده ذلك نفعاً، وشى بالعالم خطياً إلى محكمة التفتيش، التي كتب إليها إن هذا الإنسان الخبيث الجاحد قد شتم المسيح بحضوره، وقال عن الرهبان إنهم حير ويستغبون الشعب . وفوق ذلك كله فقد زعم، خلافاً لما ورد في الإنجيل، أنه لا توجد شمس واحدة فقط، بل شمس لا حصر لها . الخ . ولهذا فقد لجأ، أي موسينيغو، إلى احتجاجه في القبو، ويرجو إرسال موظفين لأخذه على وجه السرعة، وبالفعل فقد حضر الموظفون في ساعة متأخرة من ليلة الأحد، واقتادوا العالم إلى أحد السجون التابعة لمحاكم التفتيش . تمّ ذلك في الساعة الثالثة من صبيحة يوم الإثنين الخامس والعشرين

من أيار عام ١٥٩٢ . ومنذ ذلك اليوم وحتى يوم اعتلائه كومة الحطب التي أحرق بها في السابع عشر من شباط عام ١٦٠٠، لم يغادر النولاني السجون . وقد كان طوال الأعوام الثمانية التي استغرقتها المحاكمة الرهيبة، يكافح بلا كلل من أجل إنقاذ حياته . ولعل الكفاح الذي كافحه خلال السنة الأولى في البندقية ضد تسليمه إلى روما، قد كان الأكثر مرارة . وفي تلك الفترة جرت قصة معطفه . ففي شتاء ١٥٩٢ كلف جوردانو برونو، الذي كان ينزل آنذاك في أحد الفنادق، خياطاً يدعى جبرائيل زونتو بأن يفصل له معطفاً سميكاً، وقد اعتقل قبل أن يتمكن من تسديد ثمن هذا المعطف . وما أن شاع خبر اعتقاله حتى أسرع الخياط إلى منزل موسينيغو في منطقة القديس صموئيل ليطالب بدينه . ولكن الأوان قد فات . فقد طرده أحد خدام السيد موسينيغو، وهو يصيح بأعلى صوته من فوق العتبة، لافتاً بذلك انتباه بعض المارة : «لقد دفعنا لهذا النصاب ما يكفي ! ما رأيك في أن تجري إلى محكمة التفتيش، وتقول لهم هناك إن لك علاقة بهذا الزنديق» . وقف الخياط في الشارع وقد أصابه الهلع، وكانت

مجموعة من اولاد الأزقة قد سمعت ما دار بينه وبين الخادم، فاقترب أحدهم وكان قزماً مهلهل الثياب، ورمى الخياط بحجر. كما خرجت إليه من أحد الأبواب امرأة تلبس أسماًلاً بالية، وصفعته على خدّه. لكن زونتو، الذي تقدّمت به السن، أدرك بوضوح خطورة أن تكون للمرء علاقة بهذا الزنديق، فتراجع وهو يتلفّت فيما حوله، ثم سلك إلى بيته طريقاً طويلة ملتوية. لم يخبر زوجته بمصابه، وقد تعجبت طوال ذلك الأسبوع من مزاجه المكدر! إلّا أنها اكتشفت في الأول من حزيران أثناء قيامها بتدقيق الحسابات، أنّ هناك معظفاً لم يسدّد ثمنه بعد، وهو لرجل اسمه على كل لسان، فالنولاني كان حديث كلّ الناس، وقد سرت أبشع الشائعات حول سوء أخلاقه. فهو لم يكتفِ بأن يمرّغ الزواج بالوحد، سواء في كتبه أم في أحاديثه. بل نعت المسيح نفسه بالدجال، وقال عن الشمس أموراً بالغة السخف. وقد جاءت حقيقة أنه لم يسدّد ثمن المعطف لتؤكد صحّة ما نسب إليه. وبالطبع فإن السيدة المحترمة لم

تكن مستعدة لتحمل هذه الخسارة. وبعد جدال عنيف مع زوجها، لبست ابنة السبعين الثياب التي ترتديها أيام الأحد، وتوجهت إلى مقر السلطة الكنسية العليا، حيث طالبت بوجه متجهّم بالاثنتين وثلاثين سكوذة\*. التي لها في ذمة الزنديق.

قام الموظف الذي تحدّث إليه بتدوين مطلبها، ووعد بأن يستقصي الأمر، وبعد أيام قليلة تلقى زونتو مذكرة يُطلب منه فيها أن يمثل أمام المحكمة، فحضر إلى المبنى المخيف مرتجفاً مرتعد الأوصال. ولفرط دهشته فإنه لم يُستجوب، بل كل ما في الأمر أنه أُحيط علماً بأن طلبه سيؤخذ بعين الاعتبار حين يُبت في الأمور المالية للسجين. ولكن الموظف ألح إلى أن عليه ألا يتوقع الكثير. أما الرجل العجوز فقد كان سروره كبيراً لأنه نجا بنفسه بهذه السهولة، فأخذ يعبر عن امتنانه بكل خضوع. لكن زوجته لم ترضَ بهذه النتيجة، ولم يكفِ لتعويض الخسارة أن يتخلّى زوجها عن كأس النبيذ التي يشرّبها مساء، وأن يعمل حتى ساعة

---

(\*) سكوذة: عملة إيطالية قديمة فضية.

متأخرة من الليل . فلتاجر الأقمشة ديون  
لابد من تسديدها . فأخذت تصيح بأعلى  
صوتها في المطبخ وفي فناء الدار إنه لمن  
العار أن يُسجن مجرم قبل أن يسدد  
ديونه ، وإذا اقتضى الأمر فإنها ستسافر  
إلى روما لتقابل البابا من أجل أن تحصل  
على سكوداتها الاثنتين وثلاثين . ثم  
توقفت هنيهة وقالت : « ما حاجته إلى  
معطف وهو على كومة الحطب ؟ وقد  
حكى لقسيس الاعتراف ما جرى لها  
ولزوجها ، فأشار عليها بأن تطالب برّد  
المعطف إليهما على الأقل . فرأت في ذلك  
اعترافاً من جانب مرجع كنسيّ بأن لها  
حقاً . ولكنها أوضحت له أنها لن ترضى  
بتأثراً بالمعطف الذي من المؤكد أنه قد  
لُبس ، ناهيك عن أنه خيط بالتفصيل ،  
وقالت إنها مصرة في كل الأحوال على  
الحصول على المبلغ . نظراً لأن صوتها  
ارتفع قليلاً في غمرة حماسها ، فقد طردها  
الخوري ، مما جعلها تثوب إلى رشدّها ،  
وتتصرف بهدوء طوال بضعة أسابيع .

لم تعد ترد من مبنى محكمة التفتيش  
أية أخبار تتعلق بقضية الزنديق  
السجين ، ولكن الناس كانوا يتهايمسون  
في كلّ مكان إن التحقيقات قد أظهرت

ارتكابه جرائم بشعة . أمّا العجوز  
فكانت تصغي إلى كلّ تلك النميّة  
والغية بشغف شديد ، وتتألم بشدة كلما  
سمعت ان قضية الزنديق لا تسير سيراً  
حسناً ، إذ لن يُطلق سراحه أبداً ، ولن  
يتمكّن بالتالي من تسديد ديونه . لم يعد  
النوم يعرف سبيلاً إلى عينها . وفي شهر  
آب عندما أنهك الحرّ أعصابها تماماً ،  
أخذت تعرض شكاوها بطلاقة لسان  
كبيرة في المحلات التجارية التي تبتاع  
فيها حاجياتها ، وأمام الزبائن الذين  
يأتون إلى ورشة زوجها للقياس . وقد  
لمحت في أحاديثها إلى أن القساوسة قد  
ارتكبوا إثماً ، عندما لم يكثرثوا بمطلب  
مشروع ، تقدّم به حرفيّ صغير .  
فالضرائب كانت تثقل كاهل الناس ، ولم  
تمضِ فترة طويلة على رفع أسعار الخبز  
من جديد .

وفي صبيحة أحد الأيام ، اصطحبها  
موظف إلى مقر السلطة الكنسيّة العليا ،  
حيث نهبها بلهجة حازمة إلى ضرورة  
الكفّ عن ثرثرتها الخبيثة . كما سئلت عما  
إذا كانت لا تحجل من أن تلوك بلسانها  
مسألة دينية هامة بسبب بضع  
سكودات ، وأفهمّت أنّ ثمة وسائل كثيرة



من كلامها، سألها بعد استراحة قصيرة عما إذا كانت ترغب في التحدث إلى برونو، فوافقت على الفور، وحُدد موعد للقاء في اليوم التالي. وفي صبيحة ذلك اليوم وقف أمامها في غرفة صغيرة جداً، لها نافذة ذات قضبان حديدية، رجل قصير نحيل ذو لحية سوداء خفيفة الشعر، وسألها بلهجة مهذبة عن غرضها.

لقد سبق لها أن رأتَه أثناء التفصيل، وظلَّت تذكر وجهه جيداً طوال تلك المدة. أما الآن فلم تتعرفه حالاً. فمن المؤكد أنَّ التوتر النفسي الذي سببته له الاستجوابات قد غيَّر ملامحه، قالت على عجل: «المعطف! لم تسدَّد ثمنه». فتأملها مندهشاً بضغ ثوان، ثم رجع إلى ذاكرته، وسألها أخيراً بصوت خافت: «كم أنا مدين لك؟» فقالت: «بائنتين وثلاثين سكودة». هنا التفت برونو إلى الموظف الطويل السمين، الذي كان يشرف على اللقاء، وسأله عما إذا كان يعلم مقدار المبلغ الذي سُلِّم مع أمّته في مقر السلطة الكنسية العليا. لكنَّ الرجل لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك، ووعد بأن يستطلع الأمر. التفت

يمكن أن تُستخدم في إخراس أمثالها من الناس. وقد أجدى ذلك التحذير لفترة قصيرة، وإن كان الدم يصعد إلى رأسها غضباً كلما تذكرت تعبير: «بسبب بضع سكودات»، يتفوه به راهب سمين. ولكن في أيلول قيل إنَّ المحقق الكبير في روما قد طلب أن يُرسل إليه النولاني. وإن حكومة المدينة تبحث المسألة، وقد أثار طلب التسليم هذا نقاشاً حامياً في صفوف المواطنين، وكان الشعور السائد ضدَّ تلبيته. فجمعيات الحرفيين لا ترضى بأن يكون لمحاكم روما سلطة عليها.

فقدت العجوز السيطرة على أعصابها. أيريدون الآن حقاً ترك الزنديق يذهب إلى روما قبل أن يسدَّد ديونه؟ لقد طفع الكيل. وما إن بلغ العجوز هذا الخبر الذي لا يُصدَّق، حتى جرت إلى مقر السلطة الكنسية العليا، دون أن تترث قليلاً لتبدِّل تنورتها. في هذه المرّة استقبلها موظف ذو مرتبة عالية. ومن المستغرب أنه أبدى تفهماً لمساها أكثر من الموظفين السابقين، علماً بأنه في سن تقارب سنّها. فقد أصغى إلى شكواها بهدوء واهتمام، وعندما فرغت

السجين إلى العجوز مرة أخرى وسألها: «كيف حال زوجك؟» وكأنه قد أزال بذلك الفتور السائد بينها، وأحلّ محله علاقة طبيعية، بحيث بدت الزيارة عادية، فتمتعت العجوز، وقد أربكها اللطف الذي عاملها به الرجل القصير: «إنه بحال جيدة». حتى أنها أضافت شيئاً عن الرومانزم الذي يشكومنه زوجها.

لم تعد إلى مقر السلطة الكنسية العليا إلا بعد يومين، فقد بدا لها من اللائق أن تترك للرجل وقتاً للاستفسار. وبالفعل فقد سُمح لها بالتحدث إليه مرة أخرى، وإن كانت قد اضطرت لأن تنتظر أكثر من ساعة في تلك الغرفة الصغيرة التي لها نافذة ذات قضبان حديدية، وذلك لأن السجين كان في الاستجواب. ثم جاء وقد بدا منهكاً جداً، فأسند جسمه إلى الحائط قليلاً لعدم وجود كرسي، لكنه دخل فوراً في صلب الموضوع، حيث قال لها بصوت ضعيف جداً، إنه، للأسف غير قادر على تسديد ثمن المعطف، وليس ثمة أي مال مع أمعته. مع ذلك فلا داعي لأن تفقد الأمل تماماً، فقد فكّر في الأمر ملياً، وتذكر أن له بقية من مالٍ عند رجل طبع له كتباً في

فرانكفورت، وهو يريد أن يرأسه، إن سُمح له بذلك، وغداً سيلتمس الموافقة، أما اليوم فقد تولّد لديه أثناء الاستجواب الانطباع بأن الأجواء غير ايجابية، فلم يشأ أن يستفسر لأنه قد يُفسد بذلك كل شيء.

كانت العجوز ترمقه أثناء كلامه بنظرات ثابتة. فهي تعرف الأعذار والوعود التي يلجأ إليها المدينون المقصرون. إنهم لا يعيرون التزاماتهم أي اهتمام، وإذا أخرجوا فإنهم يتصرفون وكأنهم يبدلون قصارى جهدهم. سألتها بلهجة قاسية: «ما حاجتك إلى معطف ما دمت لا تملك مالاً تسدد به ثمنه؟» فهز السجين رأسه دليلاً على أنه فهم قصدها وأجاب: «كنت دائماً أكسب المال بالكتب والتدريس. ولذا ظننت أنني سأكسب مالاً هذه المرة أيضاً. وقد اعتقدت أنني سأحتاج إلى معطف، لأنني سأتنقل كثيراً». قال ذلك دون أي شعور بالمرارة، ولمجرد ألا يبقى مديناً لها بالجواب. ومرة أخرى تأملت العجوز من رأسه حتى أحمص قدميه بغضب شديد. ولكنها أحست بأن حاجزاً يحول بينها وبينه. ودون أن تنفّسه بأية كلمة استدارت وجرت خارج الغرفة. وفي

ذلك المساء قالت لزوجها مغتاضة وهما  
مستلقيان في السرير: من يرسل مالا  
«لإنسان يحاكم في محكمة التفتيش؟!»

كان زوجها الآن مطمئناً إلى موقف  
السلطات الدينية منه، ورغم ذلك فقد  
استنكر المحاولات التي تقوم بها زوجته  
بلا كلل من أجل تحصيل المبلغ، فتمتم:  
«لا شك في أنه مشغول حالياً بأمور  
أخرى». فلزمت الصمت.

انقضت الشهور التالية دون أن  
يستجد أي شيء في تلك القضية المتعبة.  
وفي مطلع كانون الأول قيل إن حكومة  
المدينة تنوي التجاوب مع رغبة البابا في  
تسليم الزنديق. وبعد ذلك تلقى زونتو  
مذكرة جديدة تدعوه للحضور إلى مقر  
السلطة الكنسية العليا، دون تحديد  
ساعة معينة لذلك، فذهبت زوجته إلى  
هناك في عصر أحد الأيام. لقد أتت في  
وقت غير مناسب، فالسجين ينتظر زيارة  
أمين عام الجمهورية، الذي طلبت منه  
حكومة المدينة أن يعد تقريراً حول مسألة  
التسليم.

استقبلها الموظف الكبير، الذي كان  
قد رتب لها اللقاء الأول مع النولاني،  
وقال لها أن السجين راغب في التحدث

إليها، لكنه يشك في أنها قد اختارت وقتاً  
ملائماً، لأن السجين أمامه جلسة على  
درجة كبيرة من الأهمية، فأجابت العجوز  
باقتراب إنها لا تطلب أكثر من أن  
يسألوه.

غادر أحد الموظفين الغرفة، ثم عاد  
برفقة السجين، وامت المقابلة بحضور  
الموظف الكبير، وقبل أن يتمكن  
النولاني، الذي ابتسم لها حين دخوله،  
من أن يقول أي شيء بادرت العجوز إلى  
القول: «ما دمت تريد أن تنتقل كثيراً،  
إذن لماذا تتصرف على هذا الشكل؟» بدا  
الرجل القصير لحظة كسيف البال. فقد  
أجاب في الربع الأول من هذه السنة على  
أسئلة كثيرة جداً، ولم يعد يتذكر نهاية  
لقائه الأخير بزوجة الخياط، وأخيراً قال:  
«لم تصلني أية نقود. كتبت مرتين بهذا  
الخصوص، ولكن لم يصلني شيء». وفكرت  
في احتمال أن تستردوا المعطف». فأجابت  
بازدراء: «كنت أعلم طوال  
الوقت أن النهاية ستكون على هذا  
الشكل. ولكن المعطف قد خيط  
بالتفصيل، وهو صغير جداً بالنسبة  
لأغلب الناس». نظر النولاني إلى  
العجوز نظرة المعذب وقال: «لم يخطر

ذلك ببالي» ثم وجه كلامه إلى رجل الدين وسأله: «أليس من الممكن أن تُباع كل أمتعتي، وتُدفع النقود لهؤلاء الناس؟» هنا تدخل في الحديث ذلك الموظف الطويل البدن، الذي كان قد أحضره للقاء العجوز، وقال: «هذا غير ممكن. فالسيد موسينيغو يدّعي أن له حقاً في ذلك، لأنك عشت على حسابه مدة طويلة». فأجاب النولاني مرهقاً: «إنه هو الذي دعاني». عندئذ رفع رجل الدين يده معترضاً وقال: «هذا في الحقيقة موضوع آخر. في رأيي ينبغي أن يُعاد المعطف». فقالت العجوز بعناد: «وماذا سنفعل به؟». أهر وجه الرجل قليلاً وأجاب ببطء: «يا عزيزتي، إن قليلاً من التسامح المسيحي سيكون لائقاً بك. فأمام التهم جلسة يمكن أن تعني له حياة أو موتاً. ولهذا لا يمكنك أن تنتظري منه أن يولي معطفك اهتماماً كبيراً». فنظرت العجوز إليه وجلة، وقد تذكرت فجأة أين هي الآن فأخذت تسأل نفسها عما إذا كان من الأفضل لها أن تغادر المكان. وفي تلك اللحظة سمعت السجين وراءها يقول بصوت خافت: «في رأيي يمكنها أن تنتظر ذلك». وعندما التفتت إليه أضاف:

«أرجو أن تعذرني على كل ما حصل، ولا تظني بأية حال أنني غير مكترث بالخسارة التي لحقت بك. سأقدم بطلب جديد بهذا الخصوص».

كان الموظف الطويل السمين قد خرج من الغرفة بناء على إشارة من رجل الدين وقد عاد لتوه، فبسط ذراعيه قائلاً: «المعطف لم يُسلم بتاتاً مع الأمتعة. ومن المؤكد أن موسينيغو قد احتفظ به». هنا بدا الذعر على النولاني بوضوح، ولكنه قال باصرار: «هذا لا يجوز، سأرفع دعوى ضده». فهز الرجل رأسه قائلاً: من الأفضل أن تشغل نفسك بالمقابلة التي ستبدأ بعد دقائق. لا أستطيع بعد الآن أن أسمع بأن ينشب هنا شجار بسبب بضع سكودات». صعد الدم إلى رأس العجوز التي لزمت الصمت وراحت تنظر متذمرة إلى إحدى زوايا الغرفة بينما كان النولاني يتكلم. أما الآن فقد نفذ صبرها من جديد وصاحت: «بضع سكودات! هذا دخلنا في شهر. أنت قادر على التسامح بسهولة، لأنك لا تخسر شيئاً». في تلك اللحظة وقف بالباب راهب فارغ الطول وأخذ ينظر مندهشاً إلى السيدة التي تصيح، ثم قال

بصوت نصف مرتفع : «وصل الأمين العام».

أمسك الموظف الطويل السمين النولاني من كفه واقتاده خارج الغرفة، فيما ظلّ السجين ينظر من فوق كتفه الضيقة إلى الخلف باتجاه السيدة، إلى أن اجتاز العتبة. لقد كان وجهه النحيل شاحباً جداً. أما العجوز فقد هبطت درج المبنى الحجري مذهولة لا تدري ما تقول. فالرجل قد بذل في الحقيقة كلّ ما في وسعه من جهد. وبعد أسبوع أحضر الموظف الطويل السمين المعطف إلى الورشة، لكنها لم تدخل بل اكتفت

بالتصنت من وراء الباب فسمعته يقول: «في الواقع لقد اهتم بمسألة المعطف طوال الأيام الأخيرة. فقد تقدم مرتين بطلب لذلك في الفترات التي تخللت الاستجوابات والمشاورات التي أجرتها معه سلطات المدينة. ومرات عديدة طلب مقابلة موفد البابا بهذا الخصوص. وكان له ما أراد. فاضطر موسينغو لإعادة المعطف. وبالمناسبة فقد كان سيحتاج إليه الآن، لأنه سيسلم، ولا بد له من أن يغادرنا إلى روما في هذا الأسبوع». وقد صبح ذلك، وكان في آخر كانون الأول.





# نجيب محفوظ سياسيًا

بقلم: أحمد محمد عطية

السياسة هي المحور الأساسي في حياة نجيب محفوظ، وفي فكره، وفي أدبه وفنه. فهي المؤثر الأول في تكوينه العقلي. وهي الدافع المحرك لتوجهاته الأدبية والفنية. وهي النبع الغزير الذي ظل يغذي ضميره وينير بصيرته في تعبيره الفني، البديع والحكيم والرفيع، عن هموم الإنسان والوطن والأمة. . وهي المنظور الذي أبدع من خلاله كل رؤاه الناقدة والمحللة والداعية للتغيير الاجتماعي والسياسي، والمحلقة في سماء الكون والوجود، والباحثة عن آفاق مسيرة الإنسان وعن مصيره.

فقد تفتح وعي نجيب محفوظ منذ طفولته على أحداث السياسة تجري في بيته، وعلى الأجداد الفرعونية عندما كانت أمه تصحبه لزيارة المتاحف المصرية. وتطور وعيه

مع الاكتشافات الأثرية وارتفاع الدعوة الفرعونية السياسية واشتداد الحركة الوطنية المصرية، ونما في المناخ السياسي الفوار الذي أشعلته ثورة ١٩١٩ .

فقد جذبته أحداث ثورة ١٩١٩ الشعبية العارمة إلى أتون السياسة، وبهرته شخصية زعيمها سعد زغلول ودفعته إلى التعلق بحركة الوفد المصري وبحزب الوفد وبالمظاهرات السياسية، وهو لم يزل بعد صبيا في السابعة من عمره تقريبا . فتغلغل السياسة في كيانه، وترسخت في أعماقه . وفي عقله وفي وجدانه، ورافقت نشأته منذ ولد، في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩١١، في بيت سياسي مصري، وبين أسرة متوسطة تشكل السياسة محور أحداثها اليومية، وتعد الوطنية قيمتها الأثيرة، كما صورها في إحدى مقابلاته بقوله:

« . . أما القيمة الأساسية التي أخذتها من مرحلة الطفولة فهي الوطنية . . فقد كان والدي يتكلم في البيت دائما عن أبطال الوطن بحماس . ويتابع أخبارهم باهتمام كبير . . لقد نشأت في بيت كان عندما يذكر فيه اسم مصطفى كامل أو محمد فريد أو سعد زغلول فكأنما نتحدث عن مقدسات حقيقية . ولم يكن ثمة حاجز بين قضايا البيت وقضية الوطن . فكل جزئية صغيرة في حياتنا اليومية كانت تستدعي إلى البيت شيئا مما يدور في حياتنا العامة . . فهذا حدث لأن سعد قال كذا . . أو لأن الإنجليز فعلوا كيت . . . أو لأن السراي انسأقت خلف هذا أو وقفت ضد ذاك . ولذلك فقد انطبعت في طفولتي العلاقة الوثيقة بين البيت والعالم منذ سن مبكرة . وكانت النغمة الانفعالية والحماسية التي يتكلم بها والدي عن الشخصيات العامة في مجال السياسة تشعرني بأنه يتحدث عن خصوم شخصيين أو أنصار شخصيين، ولم يكن والدي نمطا متفردا في هذا المجال، بل كانت هذه هي الروح العامة والمناخ العام الذي ساد مصر إبان طفولتي . »

وأوضح نجيب محفوظ: «أن جو البيت الذي نشأت فيه لم يكن يوحى بأنه سيخرج من هذا البيت واحد له صلة بالفن . كان العنصر الثقافي الوحيد في البيت ذا طابع ديني، وكانت صلة البيت بالحياة العامة ذات صبغة سياسية . ولم يكن ثمة ما

يؤدي على الإطلاق بأن أحدا من أبناء هذا البيت ستكون له صلة بالفن في يوم من الأيام»<sup>(١)</sup>.

## مؤثرات في الطفولة

ومعروف أن مرحلة الطفولة هي أكثر المراحل تأثيرا في تكوين الشخصية الإنسانية. وأن الطفل هو أب الرجل. وأن كل المؤثرات التي تحدث في حياة الإنسان التالية «لا يمكن أن تعيد ابتداء عملية تكون الشخصية، كما لو لم تكن هناك طفولة قط، بل هي تقوى أو تنازع، أو تبنى على علامات الشخصية التي انطبعت على العقل في وقت الطفولة». كما يقول الاستاذ الأمريكي «افيرت أ. هاجين» في كتابه «حول نظرية التغير الاجتماعي». ويؤكد «هاجين» التأثير العميق والحاسم لشخصية الأب والأم في سلوك الطفل، منذ سن الرابعة، وفي تشكيل وعيه، وفي تكوين قيمه، وأيضا في توجيه مشاعره نحو القادة السياسيين سلبا وإيجابا، وأنه يكتسب قيم أبيه واتجاهاته في الحياة متى فهمها. فإذا كان الأب يمحى أو يعجب بأحد القادة السياسيين، كذلك يفعل الابن، وطبعي أن لا يكون نموذج الأب، هو النموذج الوحيد الذي يتعلم منه الطفل، إذ أنه يلاحظ أمه ويتعلم منها أيضا الكثير. «كما أن الطفل منذ تجاربه الأولى وهو يعمم بتوسع ما يختص بطبيعة العالم المحيط به، ويؤثر هذا التعميم بقوة في طبيعة الفرد الذي سيؤول إليه. إن هذه التعميمات تبقى في المراحل المتأخرة للحياة وتؤثر في سلوك الفرد بعد بلوغه، وزيادة سنه ومعرفة على استخدام عمليات التحليل المنطقي الواعي في حسم المواقف. كما أن البيئة المنزلية التي استمد منها الفرد آرائه المبكرة، خلال الاثنتي عشرة سنة الأولى مثلا، تستمر كجزء مركزي من بيئته خلال الأعوام التالية من حياته».

بل أن الأحداث السياسية والاجتماعية تؤثر في الأسرة وفي البيت وفي الأطفال وتصبح مصدرا رئيسيا للتغير الاجتماعي. «فإذا تسبب موقف اجتماعي جديد في تلهف وقلق إحدى الجماعات، بعد أن كانت تشعر بالرضا إلى حد معقول، فإن هذا التلهف سيؤثر على سلوكهم في البيت. ومن ثم على البيئة التي ينمو فيها أطفالهم.



وأرى أن مثل هذه التوترات التي تمتد لبضعة أجيال، هي سبب أساسي للتغير الاجتماعي . وبهذا قد يكون لنموذج المجتمع الذي يتضمن مثل هذه التوترات . وتأثيرها على بيئة الطفولة، فائدته في تفسير التاريخ<sup>(٢)</sup> .

وهذا هو ما حدث مع نجيب محفوظ . إذ تلقى السياسة من كل جوانب البيئة المحيطة به منذ طفولته، المبكرة، بدءاً من الأب، الذي جعل من أحاديث السياسة ومن سيرة قادتها غذاء الأسرة اليومي الدائم، مع الأم التي شحنت وجدانه بآثار الفراعنة الأجداد عبر زياراتها للمتاحف المصرية، وانتهاءً بالمناخ السياسي الملتهب بأحداث ثورة ١٩١٩، التي بدأت في الثامن من مارس من تلك السنة وارتفع معها سعد زغلول زعيم حزب الوفد .

وابتداءً من هذه السنوات الأولى في طفولة نجيب محفوظ وفي صباه أصبح سعد زغلول وحزب الوفد والفرعونية والتاريخ الفرعوني المصري من الثوابت السياسية الأساسية في تكوين نجيب محفوظ وفي توجهاته الفكرية والسياسية والأدبية، ودفعته إلى المشاركة في السياسة وفي مظاهرات الحركة الوطنية المصرية، مما دمج أدبه بطابع سياسي يميز حمله هموم الوطن السياسية والاجتماعية، وصور فيه الأحداث والشخصيات السياسية والتاريخية وجسد فكرة عبر شخصياته الروائية والقصصية السياسية .

وقد ظل نجيب محفوظ أسيراً لفكره الوفدي ولانتماءاته الوفدية اليسارية كأحد أبناء الطليعة الوفدية (الجناح اليساري في حزب الوفد القديم) ولإيمانه العميق بالدعوة الفرعونية المصرية، مما انعكس في شخصيات رواياته وقصصه السياسية، وغطى أعماله الأدبية والفكرية القديمة والحديثة على السواء . وظلت هذه الرؤية السياسية المصرية الوفدية اليسارية، المشبعة بانبهاره العاطفي وبتعلقه الوجداني وبمحبه العظيم لسعد زغلول، المستمدة من تأثيرات الطفولة والصبا، ظلت تشكل المنظور الثابت الذي يرى نجيب محفوظ من خلاله كل الأحداث وكل التطورات والاتجاهات ومختلف الشخصيات السياسية السابقة على ثورة ١٩١٩ والتالية لها، والتي انعكست بقوة وفن ومباشرة أيضاً على صفحات أعماله الأدبية والفنية والفكرية،

من ثورة يوليو ١٩٥٢ وهزيمة يونيو ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف وحالة اللاسلم واللاحرب إلى أكتوبر ١٩٧٣ واتفاقيات «كامب ديفيد» والانفتاح الاقتصادي، جنباً إلى جنب مع ثورة ١٩١٩ وحزب الوفد وسعد زغلول والدعوة الفرعونية المصرية وفكر الطبقة الوسطى . . .

### «الجمالية» وتأثيرها

كما أثرت نشأته في حي «الجمالية» الشعبي وانتقاله للإقامة في حي «العباسية»، الذي جمع بين أسر الارستقراطية المصرية وبين أفراد الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها نجيب محفوظ ويعبر عنها، فأثرت هذه النشأة وهذا الانتهاء في رؤيته وفي توجهاته وفي انتقائه لشخصياته من أبناء الأحياء الشعبية ومن أفراد الطبقة الوسطى ومن أسر الارستقراطية المصرية، وأدى بدوره إلى إبعاد شخصيات العمال والفلاحين من عالمه الروائي والقصصي.

وأذكر أنني سألته، خلال مقابلاتنا التي أجريتها معه في أواخر الستينات وأوائل السبعينات، عن أسباب اختفاء الريف وشخصيات فلاحية وافتقادها في كتاباته بالرغم مما يشغلانه من مكانة كبرى ومن أهمية مؤثرة في الحياة المصرية وفي المجتمع المصري، خاصة وأنا أعلم بأن مصير روايته الريفية الوحيدة «أحلام القرية» كان التمزيق، فأجابني قائلاً: (أحلام القرية)، كنت في اجازة، وخطر لي أن أكتب رواية ريفية فكتبتها، وأنا لم أزر الريف في حياتي، ولذا أخذت الرواية مصيرها الوحيد<sup>(٣)</sup>.

ثم عاودت سؤاله بصيغة أكثر تحديداً ووضوحاً، عن مدى اتفاقه معي في تصنيفه ككاتب معبر عن فكر الطبقة الوسطى ومصور لشخصياتها، وعن أسباب استبعاده لشخصيات العمال والفلاحين من عالمه الأدبي؟! فوافقتني بقوله: «أنا كاتب الطبقة الوسطى لأنني من الطبقة الوسطى. ولكن يوجد كتاب طبقة وسطى معبرين عن عظمتها، وهناك كتاب يعتبرون من نقادها، وأنا من الطائفة الثانية على وجه اليقين. وأنا لم أكتب عن شخصيات العمال والفلاحين لأنني لم أعرفها، بل أكتب عن شخصيات شعبية وعن شخصيات من الطبقة الوسطى<sup>(٤)</sup>».

وفي رأيي إن انتهاء نجيب محفوظ للطبقة الوسطى وتصويره للمجتمع المصري من خلال شخصياتها ورؤاها وأفكارها، يؤكد العلاقة الوثيقة بين الأديب وبين مصالحه وبيئته وطبقته وجماعته وقيمها وفكرها وتطلعاتها. أو بوجه عام بين الأديب ومركزه الاجتماعي. فكما أن الأدب لا ينفصل عن المجتمع، وأن الرواية هي أوثق الفنون الأدبية تعبيراً عن علاقة الإنسان بالمجتمع وعن وضع الأديب في المجتمع، فإن الأديب لا يمكن فهمه بمعزل عن خلفياته الفكرية وعن مكوناته الأسرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لأن «العمل الأدبي لا يعبر عن مؤلف فرد - كما يقول لوسيان جولدمان - وإنما عن الجماعة التي ينتمي إليها الأديب، ويعبر عن رؤيتها للعالم سواء بطريقة شعورية أو لا شعورية<sup>(٥)</sup>».

### الطبقة الوسطى .. لماذا؟

فإذا قبلنا تفسير نجيب محفوظ لاستحواذ رؤية وفكر وشخصيات الطبقة الوسطى على عالمه الروائي والقصصي، ولكونها الطبقة الأثيرة في هذا العالم الفسيح والبالغ الاتساع والثراء والتنوع والعمق والتفرد والشمول والمترامي الأطراف والممتد، الذي اتسع لكل الطبقات وضاق في وجه طبقتي العمال والفلاحين، بحكم انتزاعه للطبقة الوسطى وارتباطه بها وبمصلحتها وأنه لا يعرف سواها معرفة واقعية كافية لكي يكتب عنها، فإننا لا نستطيع الاقتناع بتبريراته الأخرى لاختفاء شخصيات العمال والفلاحين، وهي الشخصيات الانسانية المهمة والرئيسية في المجتمع المصري، من تصويره ورصده الدقيقين لهذا المجتمع وتركيزه على أبناء الطبقة الوسطى مع الشخصيات الارستقراطية والشعبية المصرية.

لأنه إذا كان نجيب محفوظ قاهري الميلاد والنشأة والتكوين، وأنه لم ير الريف المصري، أكبر قطاعات مصر والمجتمع المصري، لانحصاره في مدينتي القاهرة والإسكندرية فلا يمكن أن نقبل استبعاده لشخصيات العمال من عالمه الأدبي ومن رؤاه الفكرية والسياسية بحجة عدم معرفته بهم وبواقعهم. لأن العمال المصريين شكلوا حركة عمالية كبرى نشيطة ومؤثرة في القاهرة وفي الإسكندرية منذ مطلع القرن الحالي

وحتى يومنا هذا. ولكن الزعيم الوفدي سعد زغلول، ابن الطبقة الوسطى أيضا، هو الذي استبعدهم من قيادة الحركة الوطنية، وهو الذي وجه إليهم وإلى تنظيماتهم النقابية وإلى طلابهم اليسارية وإلى توجهاتهم الاجتماعية التقدمية أعنف الضربات عندما تولى الحكم ورأس الوزارة المصرية في أعقاب ثورة ١٩١٩. وهذا يؤكد أيضا مدى تأثير شخصية سعد زغلول ورؤاه ومفاهيمه وسياساته على شخصية نجيب محفوظ، وعلى فكره وأدبه، وعلى توجهاته السياسية.

## سياسة وسياسيون

فقد ظل سعد زغلول هو الزعيم المهيمن على كل خلايا نجيب محفوظ الفكرية والسياسية والروحية والوجدانية، والذي يسيطر نفوذه على كل أعماله ورؤاه. إذ يضعه نجيب محفوظ دائما في مرتبة أعلى وأرفع من كل الزعماء المصريين القدامى والمحدثين. ومع أن نجيب محفوظ رجل عقلاني ومحاور منطقي ذكي يتميز بالصبر والهدوء والسماحة وتقبل الآراء الأخرى المعارضة لوجهة نظره، إلا أن هذه المميزات الفكرية والشخصية سرعان ما تتراجع وتتوارى كلية عندما تصل المناقشات إلى سعد زغلول أو ثورة ١٩١٩ أو حزب الوفد (القديم)، فهنا يتصلب نجيب محفوظ ويفقد صبره وهدوءه ويحتد ويرفض كل تحليل علمي أو منطقي لدور سعد زغلول في ثورة ١٩١٩ الشعبية التي قامت في غيابه بالمنفى؟! ولا يعترف أيضا بأن ثورة ١٩١٩ لم تحقق هدفها المعلن بتحقيق الاستقلال التام لمصر وجلاء الانجليز عنها وأن حزب الوفد كرس احتلال الاستعمار البريطاني لمصر وأضفى عليه الشرعية بعقده معاهدة ١٩٣٦ مع المحتلين ثم بقبوله رئاسة الوزارة المصرية على أسنة رماح الدبابات الانجليزية في ٤ فبراير ١٩٤٢، وأن ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبدالناصر وحدها هي التي حققت هذا الاستقلال الحقيقي التام لمصر، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وأنها هي التي أجلت الانجليز عن أرض مصر بالفعل ومصرّت الاقتصاد المصري بتأميمها للبنوك والشركات الأجنبية.. وكان هذا هو محور إحدى مناقشاتي السياسية معه، التي أثارت غضبه، فكان يرد أثناءها محتدا بالرفض العصبي والعاطفي لكل هذه الوقائع التاريخية الثابتة والراسخة!؟



سعد زغلول

السياسة إذن، هي المحور الأساسي في حياة نجيب محفوظ وفي أعماله وفي أشكاله الأدبية والفنية، وفي استمراره وفي توقفه عن الكتابة. لأنه يكتب بدافع سياسي ومن أجل هدف سياسي. وعندما اكتشفت نجيب محفوظ كان ذلك بسبب السياسة، التي وجدت حية ومعاصرة ومكتملة وجوهرية لأول مرة في عمل روائي عربي، بروايته السياسية الأولى «القاهرة الجديدة»، التي أصدرها يوسف السباعي في «الكتاب الذهبي» بعنوان «فضيحة في القاهرة»، وأسماها صلاح أبو سيف «القاهرة ٣٠» في فيلمه السينمائي المعروف.

وجدير بالذكر أن الحدث الرئيسي في رواية «القاهرة الجديدة» هو حدث واقعي أشارت إليه الصحف المصرية وفي وقت صدور الرواية (١٩٤٥)، طبقا لما كتبه نجيب محفوظ في رسالته إلى صديقه الدكتور أدهم رجب قائلا: «... وقد استقبلت صحف النقد عندنا (القاهرة الجديدة) استقبالا حسنا - ومن جميل المصادفات أن حادثة القصة تكرر حدوثها في الواقع منذ شهر مع وزير حالي (قدم الآن استقالته) ولما كتبت (آخر ساعة) عن القصة ولخصتها ظن كثيرون أنها تعني قصة الوزير (أبو سمرة) على ما يقال<sup>(٦)</sup>».

فكما أن نجيب محفوظ هو الأب الحقيقي للرواية العربية الفنية الحديثة، فهو أيضاً رائد الرواية العربية السياسية والمبدع الأول لأهم شخصياتها، شخصية البطل الثوري، الذي لم يظهر في الرواية العربية قبل أن يولد على يد نجيب محفوظ في روايته السياسية «القاهرة الجديدة» وبطلها «علي طه»، الذي آمن بضرورة غرس بذور الثورة واتخذ من اليسار مساراً دائماً له، ورفض الواقع الاجتماعي والسياسي. كما اختار طريق النضال الثوري الجاد منحازاً إليه ضارباً بعرض الحائط الوظيفة الحكومية المستقرة، رافضاً بإصرار الحياة الناعمة في ظل مجتمع بائس، رغم تيقنه من أن في طريقه الثوري الجديد من آلام السجن وإرهابه ما يفوق كل أمل في تحقيق حياة اشتراكية عادلة.

ثم تابع نجيب محفوظ تقديم شخصياته السياسية الثورية وتصوير تطورها في رواياته التالية، التي جمع فيها بين التصوير الواقعي لهذه الشخصيات، الإيجابية والمبشرة والموحية والداعية للتغيير الاجتماعي والسياسي وبين توجيه النقد لها.

فقد صوّر نجيب محفوظ تطور بطله الثوري «علي طه» في روايته «القاهرة الجديدة» وتردده في تجاربه حتى اهتدى إلى معرفة طريقه السياسي الصحيح. وجاء البطل الثوري في الثلاثية، «أحمد شوكت» في «السكرية» ثالث أجزاء الثلاثية، ليتجاوز تردد البطل الثوري الرائد «علي طه» وينخرط في النشاط الثوري السري والعلمي.

وإذا كانت «القاهرة الجديدة» قد عرضت في حياض تام، الصراع بين شخصيتي البطل الثوري والرجعي، فإن «السكرية» أوضحت بجلاء، من خلال عرض موقف الرجعي «عبد المنعم شوكت» السياسية، مدى رجعيته وتخلفه. وأكدت «السكرية» أن المستقبل بيد البطل الثوري لإيمانه الشديد بالمستقبل وبالإنسان.

ولعل أخطر نقد وجهه نجيب محفوظ لشخصية البطل الثوري يتمثل في روايته «ميرamar» بتصويره لخيانة بطلها: «سرحان البحيري» ثوري الاتحاد الاشتراكي، و«منصور باهي» الثوري الشيوعي. فبنهايتيهما المأساويتين تردى بطل عالم نجيب

محفوظ الثوري في هاوية سحيقة . وبقدر ما أثاره ظهور « علي طه » في رواية « القاهرة الجديدة » من آمال ، بقدر مادفنت هذه الآمال كلها مع جثتي « سرحان البحيري » و « منصور باهي » في روايته « ميرamar » مخلفة البطل الثوري في أزمة رهية ؟! وكانت هذه هي ذروة النقد الذي وجهه السياسي نجيب محفوظ لتلك الشخصيات الثورية .

وتقطر أحدث رواياته السياسية « يوم قتل الزعيم » ، كل خبرات نجيب محفوظ الروائية والحياتية والثقافية والفكرية والسياسية . . ففي أسلوب مكثف مشحون بالمعاني وبالخبرات والحكم ، وبجمل قصيرة متلاحقة وتوتر درامي متصاعد ، وأحداث مشوقة وشخصيات متعددة تتحدث عبر تيار الوعي الذي يتيح انسياب الذكريات الانسانية والتاريخية والسياسية ، وامتزاج الأزمنة والأمكنة وتصوير وجهات نظر متعددة ، مع الاستعانة بالتراث العربي والقرآن الكريم والأحاديث النبوية وبأقوال الصوفية وأفكارها . . من هذا المزيج الفني والفكري والتراثي والسياسي شيد نجيب محفوظ معمار روايته السياسية « يوم قتل الزعيم » بإحكام المهندس البارِع ورسم الروائي الخلاق ورقة الشاعر وحكمة المفكر ووضوح السياسي . . فقدم رواية سياسية دون مباشرة أو خطابة أو تقرير ، بل بإيجاء ومجاز وإيماء ورمز بسيط شفاف . فمع أن الرواية تتناول ثورة يوليو ١٩٥٢ وعصري الرئيسين الراحلين جمال عبدالناصر وأنور السادات إلا أن نجيب محفوظ لم يذكر اسمي هذين الرجلين على الإطلاق ، بل قدمها بصفات وسمات وأوصاف تنم عن شخصيتيهما وعن عصرهما وعن نهايتهما .

وكروائي سياسي عظيم أجاد نجيب محفوظ تجسيد الأزمة العامة لمصر في شخصيات عالمه الروائي المتميزة والحية ، فمزج العام بالخاص ، بحيث صارت الهموم الخاصة لشخصياته جزءاً لا يتجزأ من الهموم العامة للوطن . . وهكذا صار الهم العام هما خاصا لكل شخصية . وهذه هي قمة الفن الروائي ومتعته وفائدته ومغزاه أيضا .

وقد انتقى نجيب محفوظ شخصيات روايته السياسية ، « يوم قتل الزعيم » ، من أجيال مختلفة ومن أنماط متنوعة ، وإن كانت شرائحها تنتمي إلى الطبقة الوسطى ، الطبقة الأثرية ، في عالم نجيب محفوظ الروائي والقصصي ، التي يعبر عنها دائما

وينقدها، وصوّر نجيب محفوظ الأزمة العامة في مصر عبر هذه الشخصيات المأزومة. وتمثلت العقدة المحورية التي دارت حولها الرواية في أزمة الشاين الحبيين والخطيين: «علوان فوزي محتشمي» و«رندة سليمان مبارك»، اللذين جسدا، رغم تميزهما بشخصيتين منفردتين، أزمة جيلهما الحائر والضائع الذي يعاني من افتقاد المصادقية للتاريخ المصري الحديث ولما يجري حولها من أحداث سياسية واجتماعية، وافتقارهما للانتماء وللالتزام ولليقين، ومعاناتها لمشكلة الاسكان والدخل المحدود بعد أحد عشر عاما من خطبتهما، مما أجبرهما على الإفتراق وتسبب في سقوط الفتاة «رندة» ضحية للزواج بمديرها «أنور علام» الذي لم تلبث أن اكتشفت فيه أحد رجال عصر الانفتاح الاقتصادي والسياسي، وأنه تزوجها ليقدمها كسلعة لرجال الأعمال. ومن خلال ذلك عرّى نجيب محفوظ، بمهارة وجراءة، فساد قيم عصر الانفتاح وصور مدى معاناة المصريين في هذا العصر.

### فنان سياسي

هذا هو نجيب محفوظ الروائي السياسي. وقد كتبت عنه كتابي «مع نجيب محفوظ (٧)» في الستينات وصدر في أول السبعينات وتعددت طبعاته في السبعينات والثمانينات، من أجل إثبات أن نجيب محفوظ فنان سياسي يستخدم الفن الروائي والقصصي للتعبير عن آرائه السياسية. غير أن تناولي لأعمال نجيب محفوظ الأدبية والفنية في هذا الكتاب ضم دراسات المكتوبة عن تلك الأعمال الصادرة حتى نهاية الستينات، من زاوية النقد الأدبي الإجتماعي والسياسي. فمزجت بين دراسة الشكل والمضمون، وتابعت تطور البنى الروائية والأشكال القصصية في أعماله. لذا رأيت أن أكتب هذه الدراسة السياسية وأن أخصصها لبحث السياسة في تكوين نجيب محفوظ وفي مفاهيمه ورؤاه واتجاهاته وانتماءاته وفي أهم أعماله الأدبية والفكرية، دون تعرض للشكل الفني وللقدر الأدبي إلا فيما يتصل منهما بتأثير السياسة وبموضوع الدراسة السياسية، باعتبار أن عطاءه الأساسي، الذي نتمنى له المزيد، قد اكتمل تقريبا. ولأن السياسة وحدها هي «المحور الجوهرى»، بنص كلماته، في كل أعماله الأدبية



والفكرية والفنية، فهي الأصل وهي الأساس، وهي الصائغ الماهر لكل هذه الأعمال. فقد قال نجيب محفوظ:

«إن العواطف والانفعالات السياسية من المصادر الأساسية لتجربتي الفنية. بل تستطيع أن تقول أن السياسة والعقيدة والجنس كانت المحاور الثلاثة التي دار حولها إنتاجي. والسياسة هي المحور الجوهرى بين هذه المحاور الثلاثة. فلم تخل رواية من رواياتي من السياسة»<sup>(٨)</sup>.

بل إن نجيب محفوظ كف عن الإبداع الأدبي عدة سنوات لأسباب سياسية. كما حدث عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، فتوقف طوال السنوات السبع التالية لها عن الكتابة الأدبية، مع أنه كان قد أعد موضوعات سبع روايات سياسية واجتماعية بعد إتمامه لكتابه ثلاثيته الكبرى «بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية» قبيل قيام الثورة بشهرين، ولكنه أراح مخططة الروائي جانبا، لأن الثورة حققت كل أحلامه، فانهار المجتمع القديم الذي كان يوجه إليه ضرباته النقدية السياسية والاجتماعية متقنعا بقناع الفن الروائي والقصصي. وقد تخلى نجيب محفوظ فيما بعد عن هذا القناع الفني وكتب أعمالا أدبية سياسية مباشرة، مطوِّحا بالكثير من أسس الفن، حتى يتسنى له المشاركة السياسية المباشرة في الأحداث الجارية في المجتمع وفي الوطن. وكان توقف نجيب محفوظ عن الإبداع الأدبي بعد قيام ثورة يوليو في حين كان المجتمع المصري يتغير ويتشكل بالصورة التي كان يحلم بها ويشر بها قبل الثورة، إذانا ببدء مرحلة جديدة في فكره وفي أدبه، يمكننا أن نطلق عليها مرحلة الرؤية الفلسفية، مع أنها مزجت بين الواقعية والرمزية وما فوق الواقعية، وسرت السياسة أيضا في سياقها وفي حواراتها.

### المرحلة الفلسفية

وأثمرت هذه المرحلة الفلسفية خمس روايات هي: «أولاد حارتنا»، «الرصاصة التي لم تنفجر»، «السمان والحريف»، «الطريق»، «الشحاذ». وقد ارتفع نجيب محفوظ بهذه الروايات الخمس من دائرة الواقع الاجتماعي المحلي، إلى مسائل إنسانية عامة

تتعلق بالوجود وبالكون وبالإنسان ومصيره . . كالعلاقة بين العلم والدين وبين العدالة الإلهية والعدالة الاجتماعية والتاريخ الديني والروحي للبشرية في «أولاد حارتنا». وجاءت «اللس والكلاب» لتنطلق من قصة واقعية معروفة في حياتنا المعاصرة (قصة السفاح محمود سليمان) من خلال اللص الشريف «سعيد مهران» بطل الرواية، ولتحلق في مسائل الحياة والموت، ولتناقش موقف الدين من الظلم الاجتماعي. ثم إحباط وتصوف الإشتراكي الذي باغته ثورة يوليو بالتوجه نحو الاشتراكية، فحققت كل أفكاره بدونه في «السمان والخريف» مما أوقعه في الضياع والانحراف إلى الجنس ثم التوجه إلى التصوف. وفي «الطريق» بحث نجيب محفوظ مع «صابر» بطل روايته عن الأب الكبير المنقذ في الواقع والرمز الذي ييسط حمايته ويرد له الحرية والكرامة والسلام. ثم تعمقت التساؤلات الكبيرة التي تطرحها روايته الأخيرة في هذه المرحلة، «الشحاذ»، عن جدوى الفن وجدوى التصوف وجدوى الحياة كلها؟! لتكمل التحول الفكري في روايات تلك المرحلة الفلسفية من تصوير الواقع الاجتماعي والسياسي ونقده في مجتمع ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، إلى الإنطلاق من زخم هذا الواقع والتحليق في سماء فكرية فلسفية إنسانية وكونية عامة انعكست في تلك الروايات الصادرة بعد توقفه عن الإبداع الأدبي إثر قيام ثورة يوليو، التي بدأت بروايته «أولاد حارتنا» وانتهت برواية «الشحاذ».

هكذا كانت الأحداث السياسية هي المحرك وهي المشكل لإبداعات نجيب محفوظ الأدبية والفنية، من الرواية التاريخية الفرعونية إلى الرواية السياسية والاجتماعية والفلسفية، ومن القصة القصيرة والقصة الطويلة إلى الرواية والحواريات المسرحية.

فقد أرجع نجيب محفوظ اختياراته لأشكاله الأدبية، في الرواية التاريخية وفي الرواية الاجتماعية والسياسية وفي القصة القصيرة وفي الحواريات، إلى السياسة وإلى تأثير الأحداث السياسية في توجيهه نحو الشكل الملائم لكل مرحلة سياسية ولتطلباتها. فعن الدافع والمغزى السياسي لاختياره كتابة الرواية التاريخية الفرعونية في بداية تجربته الروائية، وعن أسباب تحولاته الروائية من التاريخ الفرعوني إلى الواقع

المعاصر والروايات الاجتماعية والسياسية قال لي نجيب محفوظ: «من حيث الروايات والتحول الوارد بها، كان تحولا في الظاهر فقط، لأن الروايات الفرعونية التي كتبها كلها عن الحاضر وليس عن الماضي، فالأقرب أن تصنفها مع قصص الرمزية السياسية التي كتبها في الفترة الأخيرة. فالرواية الأولى منها كانت دعوة لأحد أبناء الشعب لتولي العرش. والثانية كانت ثورة على ملك لأنه خرج على التقاليد الوطنية السليمة وبِعثر أموال الشعب يمينا وشمالا. والثالثة كانت عن حرب التحرير، فكانت موجهة ضد الاستعمارين التركي والبريطاني. وفي لحظة من اللحظات تركت الرمز واتجهت إلى الواقع. وإذا سألتني لماذا اخترت الرمز الفرعوني بالذات، قلت لا تنس أنني ابن من أبناء الثورة الوطنية المصرية، ثورة ١٩١٩، وكانت فكرة المصرية فيها هي الغالبة، فكان الاتجاه إلى الأصل وهو الفرعونية...»<sup>(٩)</sup>.

وكتب نجيب محفوظ القصة القصيرة في فترات الأزمات السياسية قبل الثورة، ومع التحول الاشتراكي، وبعد النكسة. مما يؤكد تأثير السياسة والأحداث السياسية في الشكل الأدبي وفي الإبداع القصصي والروائي لديه. فقد اتجه نجيب محفوظ إلى كتابة القصة القصيرة. وهي الفن الأدبي المعبر عن التحولات الاجتماعية والسياسية الآنية، في فترات هامة من التاريخ المصري الحديث. فمجموعته القصصية الأولى «همس الجنون» كتبت في مرحلة تاريخية أليمة شهدت نجاح البورجوازية المصرية الكبيرة في التصالح مع الاستعمار البريطاني وإخماد ثورة ١٩١٩. انتهت بتوقيع معاهدة ١٩٣٦، التي أكسبت وجود الاستعمار الإنجليزي شرعية! فجاءت «همس الجنون» في فترة غليان الشعب المصري الذي أجله نشوب الحرب العالمية الثانية، ولم يلبث أن تفجر في سنة ١٩٤٦ بعد أن وضعت الحرب أوزارها. ومع بداية التحول الاشتراكي في أوائل الستينات، عاد نجيب محفوظ إلى كتابة القصة القصيرة بمجموعته الثانية «دنيا الله»، في وقت بدت فيه القصة القصيرة في شبه أزمة حادة ولتحول معظم كتابها من جيل الخمسينيات إلى المسرح المصري المزدهر أو إلى الرواية. وبعد النكسة تفرغ نجيب محفوظ كلية لكتابة القصة القصيرة والقصة الطويلة، أو الرواية المتوسطة كما أسماها في إحدى مقابلاتي معه، قائلا: «أنا أكتب في الشكل الذي أرتاح

له. بل أستطيع القول أن بذور كثير من الروايات ظهرت في هذه الفترة وقد أكتبها. كقاريء اعتقد أن أفضل شكل أرتاح له الآن هو الرواية المتوسطة، فأعصابي في هذه الظروف لا تحمل المطولات... (١٠).

## تأثير هزيمة عام ١٩٦٧م

وعن تأثير هزيمة يونيو ١٩٦٧ في فكره وفي أدبه وفي مضمون هذا الأدب، وفي توقيت نشر أعماله وارتباطه بهذا الحدث السياسي الخطير، أفضى لي نجيب محفوظ بما يلي: «أقول لك حقا أنني من بعد النكسة نضبت التأمل الفلسفي من ذهني نضوبا كاملا، لأنني واجهت واقعا يشد الإنسان إليه بكل قوته ولا يسمح له بالتفكير في غيره. وكان هذا الواقع من القوة بحيث أنه يعادي أي تفكير هروبي من أي نوع كان. ولذلك ليس من المصادفة أن أغلب هذه القصص تحولت من التأمل إلى العراك. وهذا هو ما أخر نشر قصتي «حكاية بلا بداية ولا نهاية» المكتوبة قبل النكسة... (١١).

غير أنه عاد، في حديث آخر له معي (سنة ١٩٧٦)، ليؤكد: «أن الأفكار العبيثة اجتاحتني عقب الهزيمة، وليس لدي عمل عبي كبير، ولكن تجده في القصص القصيرة: (تحت المظلة)، (شهر العسل)، أو الحواريات... (١٢).

وقد ظل نجيب محفوظ يجمع بين أداء الفنان ورؤية السياسي في كل أعماله الأدبية والفنية الصادرة قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧. غير أنه إزاء ضغوط الوضع السياسي بعد الهزيمة، تخلّى عن بعض شروطه الفنية وأسفر عن وجهه السياسي إذ ركز على المضمون السياسي في أعماله أكثر من عنايته بشكلها الفني. بل إنه ابتداء من يونيو ١٩٦٧ حرص على إثبات تاريخ كتابة كل عمل من أعماله ليظهر بجلاء أنه رد فعل ورؤية خاصة لفناننا الكبير للهزيمة ولطريق الخلاص منها. نجد هذا ابتداء من مجموعته القصصية الخامسة «تحت المظلة». الذي ذكر في بدايتها أنها كتبت في الفترة بين أكتوبر وديسمبر ١٩٦٧، ثم أوضح نجيب محفوظ أنه أقدم على كتابة مجموعاته القصصية الثلاث الصادرة بعد النكسة بدون تخطيط أو فكر مسبق، على غير عادته،

بمعنى أنها جاءت من وحي الساعة والخطر لحظة امساكه بالقلم. إذ قال لي: «أنه من بعد النكسة وكل ما كتبه، في (تحت المظلة) و (حكاية بلا بداية ولا نهاية) و(شهر العسل)، كل هذه المجموعات بدأت فيها من الصفر. فلم أبدأ في الكتابة ولدي فكرة أو مخطط مرسوم، بل جاءت كلها من وحي القلم، على العكس ما كان يحدث من قبل من وجود شخصيات أساسية وفكرة تتغير أثناء العمل، لكنها موجودة قبل الكتابة. كان هناك انفعال وقد أجبرني على الكتابة، وجاءت في هذا الشكل (١٣)».

وفي روايته «السكرية»، ثالث أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، يدور الحوار التالي بين «سوسن» و «أحمد شوكت» حول أفضل وسائل التعبير: المقال أم القصة؟! فتقول سوسن مخاطبة أحمد شوكت:

«... إنك تنفس عن أفكارك - حتى الآن - عن طريق غيرك أعني بالترجمة، ألم تفكر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟ فصمت مفكرا كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تسأل:

— ماذا تعنين؟

— المقالة، الشعر، القصة، المسرحية؟

— لا أدري، المقالة أو ما يتبادر إلى الخاطر...

فقالت بلهجة ذات معنى:

— نعم ولكنها لظروفنا السياسية، لم تعد مطلبا يسيرا، لذلك يضطر الأحرار إلى إذاعة آرائهم بالمنشورات السرية، المقالة صريحة ومباشرة، ولذلك فهي خطيرة - خاصة وأن الأعين محمقة فينا - أما القصة فذات حيل لا حصر لها، إنها فن ماهر، وقد غدت شكلا أدبيا شائعا سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهويثبت وجوده في مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟ (١٤)».

وقد عبر نجيب محفوظ بهذا الحوار عن الصراع الذي دار في نفسه في مطلع حياته الأدبية، التي بدأها بالترجمة وبكتابة المقالة الفلسفية، عن أفضل وسائل

التعبير: المقال أم القصة، الفلسفة أم الفن، في ظروف المجتمع المصري الرازح تحت حكم النظام الملكي المتحالف مع الاستعمار قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، إذ أتم نجيب محفوظ كتابة مخطوطة ثلاثيته الكبرى، «بين القصرين»، «قصر الشوق»، و«السكرية» في شهر إبريل سنة ١٩٥٢، ولم يستطع نشرها إلا بعد قيام ثورة يوليو. وحسم نجيب محفوظ هذا الصراع الفكري الداخلي باختياره لطريق القصة والرواية والأدب بوجه عام، متجاوزا مرحلة الترجمة والمقالة الفلسفية ومغلقا صفحاتها إلى غير رجعة. لأن القصة «فن ماكر»، كما وصفها في «السكرية» ولأن المقال السياسي عمل صريح وخطير ومباشر يجلب المتاعب لصاحبه في مجتمع تسوده ظروف سياسية غير صحية، كالقهر والقمع والكبت والمصادرة والفصل والمطاردة . . .

### موظف حكومي

كما لعبت مهنة نجيب محفوظ، كموظف حكومي، دورا هاما في توجه نجيب محفوظ إلى القصة والرواية والأدب، وفي تجنب الكتابة السياسية المباشرة والكتابة الثورية. فقد سألته عن تأثير الوظيفة في أدبه وفي توجهاته وهل هو «أدب موظفين»، كما أسمى أدبه ذات مرة، فأجابني قائلا: «... ما أقصده بأدب الموظفين، أنه يتيح من التجربة أضيقتها، وليس هذا فقط، بل ولا يسمح لصاحبه بأن يكتب في الوقت الذي يجب الكتابة فيه. ولكن الوقت الذي يجب الكتابة فيه. وهذه نقيصة في الكاتب. ولأنه موظف فإنه يراعي تقاليد وواجبات لو خرج عنها يفقد وظيفته. فلو كتب موظف عملا ثوريا سيفقد وظيفته. (١٥)».

وباختيار نجيب محفوظ لطريق التعبير بالقصة حافظ على شروطها كما حددها، بوصفها «فن ماكر» يستبعد المباشرة. أما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ فقد تخلى نجيب محفوظ عن شروط الفن وأقنعتة ومكره، واضعا في اعتباره حاضر ومصير الوطن والشعب، مقدما المشاركة السياسية في الوضع السياسي على أي اعتبار آخر. فني أو غير فني. بل لقد ذكر صراحة أنه كتب أعماله الأدبية والفنية بعد النكسة للمشاركة في عمل سياسي ولأداء واجب قومي دون اعتبار لأهمية الفن. إذ قال في مقابلة أدبية

(سنة ١٩٧٣): «لديّ رواية لم تنشر اسمها (الكرنك) من النوع الأول... النوع الذي تنتمي إليه قصة (الخوف) والقصص التي أشرت إليها... إن لدي استعدادا لأن أكتب قصة من هذا النوع خدمة لرأي احترامه، ولظروف سياسية أحب أن أمارس دوري فيها... حتى ولو قدر لهذه القصة أن تموت فور انتهاء المناسبة التي كتبت عنها ومن أجلها...» (١٦). فالمهم هنا مشاركته السياسية، وأن يكون له دور في الحياة السياسية. دون اعتبار لخلود العمل أو فنيته.

ألا يدل هذا على تحول خطير في إبداع هذا الفنان المهندس من الأدب السياسي إلى السياسة المباشرة، نازعا قناع «الفن الماكر» الذي دأب على ارتدائه واستعماله بإتقان وبراعة؟!

### تأثيرات حرب أكتوبر

ولهذا عاد نجيب محفوظ إلى كتابة المقالات السياسية منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ وواصل كتابتها حتى اليوم، بدأها بمقالاته المعنونة بـ«دروس المعركة» عائدا بذلك إلى مرحلة ماضية من حياته الفكرية والأدبية عندما افتتحها بكتابة المقالات (وإن كانت فلسفية) في الثلاثينات من هذا القرن (١٩٣٢ - ١٩٣٩) ثم توقف تماما عن كتابتها ليلجأ إلى أسلوب التعبير الفني. أو كما قال هو، تلك فترة تلازم فيها الفكر والفن، الفلسفة والأدب، وتصارعا داخله حتى حسم الصراع لصالح الفن. فإذا به في الستينات والسبعينات يعاوده الصراع بين الفكر والفن، فيضعف مستوى الشكل الفني وتصبح الأعمال الفنية أقرب إلى المقالات السياسية. وقد بدأت قصص مابعد الهزيمة بالرمز والتجريد، وانتهت إلى الصراحة والمباشرة. ثم انتصر المقال، فلم يجد نجيب محفوظ مفرًا من كتابة المقالات السياسية بشكل صريح مباشر.

ولأن نجيب محفوظ صمم، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، على أن يباشر مسؤولياته كمفكر سياسي ضاربا عرض الحائط بالفن «الماكر» وبحيله التعبيرية والرمزية، فقد تعرضت بعض أعماله الأدبية السياسية المباشرة للمنع من النشر في الصحف لأول مرة في تاريخه الأدبي والسياسي، كما حدث مع روايته «الحب تحت المطر» التي منعت من النشر بالملحق الأدبي لجريدة «الاهرام» رغم اتفاق الصحيفة معه على احتكار نشر

أعماله الأدبية على صفحاتها. كما منعت له روايتان أخريان ومجموعة قصص قصيرة بعد يونيو ١٩٦٧، لأنها عاجلت الهزيمة أو النظام علاجاً مباشراً، فوقعت في المحذور المفروض على وسائل التعبير السياسي الأخرى.

وهكذا أثرت السياسة، سلباً، في الشكل الفني وفي المستوى الفني لأعمال نجيب محفوظ المكتوبة في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، بسبب سطحية التناول وإعطائه الأولوية لدوافع سياسية ونظرية وفكرية مطروحة مسبقاً قبل الشروع في كتابة العمل الأدبي. وقد أكد نجيب محفوظ هذا كله في أحاديث كثيرة أدلى بها. وكشف فيها عن الوجه السياسي الأصيل والراسخ لفناننا الكبير الذي تحقّق كثيراً أو ظهر في صورة حيادية في أعماله السابقة. ومن ثم جاءت بعض أعماله الحديثة بعيدة عن أصول العمل وعن براعة الأداء الفني التي ظل نجيب محفوظ رائدها العظيم طوال الحقبة الزمنية السابقة على الهزيمة. فبعد النفاذ إلى الأعماق ظهرت النظرة السطحية والشخصيات المسطحة والصياغة التقريرية... وبعد الإيماء والإيحاء، طغى التصريح والمباشرة. هذا وارد في مجموعات القصصية الصادرة بعد الهزيمة، كما نجده في روايته: «الحب تحت المطر» و«الكرنك» وفي كتابه «أمام العرش».

كما أثرت السياسة إيجاباً، في عمل من أهم أعمال نجيب محفوظ الروائية، «ملحمة الحرافيش» المكتوبة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بتأثير إيجابيات تلك الحرب، كما قال لي نجيب محفوظ: «إن حرب أكتوبر أثمرت معي عملاً، وهو أول عمل أكتبه بعد الحرب، وهو ملحمة الحرافيش، فقد اتخذ الصراع فيها نغمة جديدة، كما أن قدراً كبيراً من التفاوض سرى في رؤيتي الإنسانية. كما أنها كانت ملحمة بطولات. وأظن أنه يمكن الربط بين هذا التغيير الواضح وبين حرب أكتوبر<sup>(١٧)</sup>».

وليس أدل على تغلغل السياسة في عالم نجيب محفوظ الأدبي والفني، من أن الشخصية الروائية غير المسيسة، شخصية الموظف الحكومي «عثمان بيومي» بطل روايته «حضرة المحترم»، وهي رواية واقعية وفلسفية معا تستخدم الواقع الوظيفي المصري لترمز من خلاله إلى مسيرة الإنسان ومصيره ووجوده، هذا البطل الذي عاش



حياته يرفض السياسة ويزدريها، وينأى بطموحاته الفردية عن الهموم العامة وعن الأحلام الاجتماعية والسياسية، استحق نهايته المأساوية بسبب هذا الموقف المضاد للسياسة والمبتعد بحياته الخاصة عن الحياة العامة، كإدانة سياسية من نجيب محفوظ لكل من يتبعد عن السياسة، وعن هموم المجتمع وقضايا الوطن، وينعزل في قوقعته الخاصة وفي تطلعاته الفردية.

فالسياسة هي التي ميزت أدب نجيب محفوظ، وهي التي جذبت إليه النقاد والكتاب والمثقفين والقراء، في مصر وفي الوطن العربي وفي العالم كله، وهي التي كفلت لأدبه الحيوية والمعاصرة... لجمعه بين الأدب والسياسة، ولتوظيفه الأدب من أجل رصد الواقع التاريخي والاجتماعي، ولإنارة الوعي، وللقند الاجتماعي والسياسي، وللدعوة للتغيير الاجتماعي والسياسي. فارتفع نجيب محفوظ في أدبه السياسي، المعبر عن روح الأمة وعن همومها وتطلعاتها، بالأدب العربي كله، وأخرجه من السذاجة ومن التسلية ومن الزخرفة ومن التقرع، مما حقق لأدبه هذه الجماهيرية والانتشار والتأثير في قراء الأدب العربي المقروء، وفي مشاهدي الفن العربي المرئي، على السواء.

## محاورات ومقابلات

وقد أولى نجيب محفوظ جل اهتمامه للقضايا السياسية والاجتماعية ومنحها الأولوية والأسبقية على كل ما عداها من موضوعات. فقال في إحدى محاوراتي معه: «أنا مهتم بالسياسة لدرجة أنني قد أعطيت وقتي وعاما من عمري كله لعمل وقتي مرتبط بوضع سياسي أو بفكرة سياسية... باعتبار أن السياسة من أكبر الأنشطة التي تتحكم في الإنسان»<sup>(١٨)</sup>.

كما أوضح نجيب محفوظ، في مقابلة أخرى لي معه، مدى تغلغل السياسة في قلبه وفي وجدانه، وأنها هي التي تشكل عقله الواعي وعقله الباطن معا. وذلك ردا على سؤالي: «عندما تكتب هل تضع في ذهنك فكرة سياسية أو أيديولوجية لتعبر عنها بالفن، خاصة أنك كاتب سياسي بالدرجة الأولى؟ إذ أجابني قائلا: «الأيديولوجية

ليست في عقلي ولكنها في قلبي ، وأنا لا أضعها ولا أحركها قبل كتابة قصة أو رواية ، لأنها تعيش معي حتى في نومي . وأنا قد أكون مهتما بموقف أو انسان أو مكان ، ثم تأتي الأيديولوجية لتلون الموضوع كله بدون وعي مني . فلا أملك أن أكون غير أيديولوجي ، ولكني لا أفكر فيها . فلا أكتب عن الأيديولوجية . ويصح أن أكتب عن قصة حب ، ولكن الأيديولوجية تعمل في الداخل وفي الخفاء (١٩) .

وعن انغماسه الدائم في السياسة وتحمسه لها وتعلقه بها منذ الصغر ، قال لي نجيب محفوظ : « منذ تفتح وعيي لم يحدث إضراب أو مظاهرة ولم أشارك فيها ، مهما اشتد الإرهاب . . كضرب الرصاص أو العصي . . » (٢٠) .

كما أفضى نجيب محفوظ ، خلال محاوراتي ومقابلاتي المتعددة معه ، بمفاهيمه ورؤاه وانتماءاته السياسية ، والتي تتمثل في إيمانه المطلق بالعدالة الاجتماعية وبالحرية الفردية والفكرية وبالديمقراطية وبالاشتراكية ، وفي انتمائه لحزب الوفد (القديم) وللطليعة الوفدية (يسار الوفد) . وفي تعلقه بالدعوة الفرعونية المصرية ، وبثورة ١٩١٩ وزعيمها سعد زغلول . فقال :

« انني ابن من أبناء الثورة الوطنية المصرية ، ثورة ١٩١٩ ، وكانت فكرة المصرية فيها هي الغالبة ، فكان الاتجاه إلى الأصل وهو الفرعونية . . » وأضاف : « الحقيقة أن مبادئ ثورة يوليو أو شعاراتها التي نادت بها هي شعارات ومبادئ أؤمن بها تماما من أول يوم ، ولم أجد بينها وبين الجناح الوفدي الذي كنت أنتمي إليه أي تناقض ، بل حلمت يوما أنها ستتحقق بانتصار هذا الجناح ، وهو جناح الطليعة الوفدية ، وذلك عندما لم يكن يخطر لنا على بال أن الجيش سيقوم بحركة . ولم تصدر مني كلمة واحدة في السر أو في العلانية ضد إنجازات ثورة يوليو ، كالإصلاح الزراعي أو التأميمات أو تمصير الاقتصاد الوطني أو مجانية التعليم ، أو مكاسب العمال والفلاحين ، أو احتضانها للقومية العربية ولتحرير الشعوب . بل لعلني كنت أراها معتدلة أكثر من اللازم ! أما ما أسفت عليه حقا فهو تأجيلها لمبدأ الديمقراطية ، لأن هذا التأجيل أصاب البناء كله بما هدده في النهاية بالخراب الكامل » (٢١) .

وعندما سألته، مستوضحا، عن تطور مفاهيمه وانتهااته السياسية :

«ما هو موقفك الفكري والأيدولوجي؟ هل أنت اشتراكي أم ليبرالي؟ يعني أم يساري؟ هل ما زلت مشدودا إلى حزب الوفد أم أن نظرتك قد تغيرت في هذا الحزب بعد التطورات الأخيرة (عودة فؤاد سراج الدين، يمين الوفد القديم، بحزب الوفد الجديد)؟! أجبني قائلا :

«بالنسبة للمذاهب، لا يوجد مذهب أنتمي إليه وأنا مطمئن تماما. لكن هناك قيما أحترمها، وأعتقد أن الجمع بينها، حتى على ضوء التجربة، ليس مستحيلا، مثل العدالة الاجتماعية والحرية الفردية. ولذلك فما يسمونه بالديمقراطية الاشتراكية التي كانت مطبقة في السويد، يمكن تكون أقرب أساليب الحكم إلى ذوقي. لا أتصور مجتمعا لا يقوم على العدل والمساواة. خصوصا في مسألة الرزق والاقتصاد، وكذلك لا أتصور إنسانا لا يتمتع بحقه في الحرية الفردية كفرد، لأنها أساس التطور وأساس الإبداع. فعندما تعمل ضوابط في أنواع من السلوك يمكن التفاهم عليها ويمكن قبولها. إنما الشيء الذي لا أقبل بأن يمس: حرية الإنسان، حريته في الفكر. وفي القبول والرفض، وفي الانتماء لليمين أو اليسار... فحرية الفكر هي الحرية الوحيدة التي يجب أن تكون مطلقة. أي حرية، الإطلاق فيها يخيل إليك أنه قد يؤدي إلى الفوضى، إلا حرية الفكر. يعني حرية السلوك قد يقول لك شخص ما بأنني حر في أن أسير عاريا في الشارع فتقول له لا، وكذلك الأمر في الجنس أو أي شيء آخر، إلا الفكر، الفكر لا يعرف الضوابط، وأي ضابط يشله... كذلك العدالة الاجتماعية، حق الإنسان في الأمور الأساسية في الحياة مثل: حقه في التعليم، حقه في الثقافة، حقه في المأوى، حقه في الرزق، حقه في العمل. أما رأيي في حزب الوفد اليوم، فهو تاريخ، ولكن عندما تقول لي حزب الوفد اليوم، أقول لك ماهي مبادئه اليوم؟!».

وهنا سألته مستدركا: لكن انتفاءك للوفد معروفة؟! «فأوضح قائلا: هذا انتفاء قديم، كنت وفديا، ولكن البلد كلها كانت وفدية، عبدالناصر كان وفديا... المهم إذا كانوا اليوم يريدون إعادة حزب الوفد، فمن هم وماذا يريدون؟! كان الوفد في الأصل حزبا لا يختلف عليه، وكرته الأمة للسعي من أجل الاستقلال، فلا يوجد

من يقف ضده إلا إذا كان يرفض السعي للاستقلال . إنما اليوم ليست لدينا مشكلة استقلال . فنحب أن نعرف رأيه في قضايا العدالة الاجتماعية؟! فأنا لا أشك في أنه مع الحرية . . ولكني أود أن أطمئن إلى موقفه من تحقيق العدالة الاجتماعية؟! ولو أن جناح الوفد اليساري كان قد توصل إلى هذا، وأنا كنت منتميا لهذا الجناح اليساري<sup>(٢٢)</sup> .

ومع ثبات إيمان نجيب محفوظ المطلق بثورة ١٩١٩ وبسعد زغلول وبحزب الوفد وبالمصرية وبالفرعونية، إلا أن مفاهيمه واتجاهاته ومواقفه السياسية الأخرى تطورت وتأرجحت مع تدفق الأحداث السياسية الكبرى في مصر وفي المنطقة العربية، ومع تغير أنظمة الحكم وتبدل توجهاتها السياسية، مما أوقعه في كثير من التناقضات والتراجعات . . . وسأتابع هذا كله، في أعماله وفي أقواله، إجمالاً وتفصيلاً في دراسات تالية، لأهميته القصوى في رسم صورة نجيب محفوظ السياسي، ولأن السياسة هي المفتاح الصحيح والمدخل الوحيد لعالمه السياسي والأدبي معاً.

### مفاهيم واتجاهات

فقد تطورت مفاهيم نجيب محفوظ واتجاهاته ومواقفه السياسية، في مصاحبته ورصده لمراحل تطور مصر السياسية، وتأرجحت بين الإيمان بالفرعونية وبالإقليمية المصرية وبين القبول بالعروبة وبالقومية العربية والوحدة العربية، ومن التعلق بالماركسية والاشتراكية إلى الليبرالية والاشتراكية الديمقراطية، ومن التحمس لإنجازات ثورة يوليو في التأميمات والقطاع العام، إلى إدانة الثورة وقائدها جمال عبدالناصر، ومن الدفاع عن الانفتاح الاقتصادي وعن الثورة المضادة بزعامة أنور السادات إلى التنديد بالانفتاح وتوجهات السادات السياسية في الداخل، إلا ما تعلق منها بالصراع العربي الصهيوني وبالصلح مع إسرائيل، فقد تطورت مفاهيم وآراء ومواقف نجيب محفوظ أيضاً من القول بحتمية الصراع العربي الإسرائيلي وباستمراره على امتداد أجيال وبالإصرار على النضال المسلح في مواجهة العدو الصهيوني، إلى الدعوة للتصالح والسلام مع الأعداء الأقوياء والدفاع الحار عن اتفاقيات كامب ديفيد!

## الهوامش

- ( ١ ) «نجيب محفوظ: أتحديث إليكم»، مجموعة أحاديث أدلى بها نجيب محفوظ لعدد من النقاد والكتاب، وجمها صبري حافظ. نشر دار العودة، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ٨٠، ٨١، ٨٤.
- ( ٢ ) حول نظرية التغيير الاجتماعي، «الفريت. أ. هاجين»، الترجمة العربية لعبدالمغني سعيد، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩، ص ٦ و ٤٩ و ٥٣ و ٦٢ و ٦٣.
- ( ٣ ) نشرت المقابلة بالمحقق الأدبي لجريدة «الأخبار» القاهرية في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٩، وبمجلة «الآداب» اللبنانية عدد يناير ١٩٧٠، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، نشر دار «رع»، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠. ص ٥٤.
- ( ٤ ) مجلة «الموقف الأدبي» السورية، عدد نوفمبر ١٩٧١، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية» ص ١٣٨.
- ( ٥ ) راجع بالتفصيل: السيد يس في كتابه «التحليل الاجتماعي للأدب»، نشر مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٠.
- ( ٦ ) «خطابات بخت نجيب محفوظ من خمسين عاما تشرح آراءه النقدية والاجتماعية والسياسية»، نشرها «ضياء الدين بيرس» بمجلة «أكتوبر» المصرية، عدد ١١ ديسمبر ١٩٨٨.
- ( ٧ ) «مع نجيب محفوظ»، أحمد محمد عطية، نشر وزارة الثقافة السورية، الطبعة الأولى دمشق ١٩٧١، الطبعتان الثانية والثالثة، نشر دار الجبل، بيروت ١٩٧٧ و ١٩٨٣.
- ( ٨ ) «نجيب محفوظ: أتحديث إليكم»، مصدر سبق ذكره، ص ٩٢ و ٩٣.
- ( ٩ ) نشر هذا الحديث مجلتي «الحوادث» اللبنانية اللندنية، ديسمبر ١٩٧٨، و«الموقف العربي» المصرية، فبراير ١٩٧٩، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
- ( ١٠ ) مجلة «الموقف الأدبي» السورية، عدد نوفمبر ١٩٧١، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ١٣١.
- ( ١١ ) المصدر السابق، ص ١٣٣.
- ( ١٢ ) نشر الحديث بمجلة «الوعي العربي» القاهرية، عدد ديسمبر ١٩٧٦، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ١١٩.
- ( ١٣ ) مجلة «الموقف الأدبي» السورية، عدد نوفمبر ١٩٧١، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ١٣٠ و ١٣١.
- ( ١٤ ) «السكرية»، نجيب محفوظ، نشر مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٦٧، ص ٤٢٨.
- ( ١٥ ) مجلة «الموقف الأدبي»، عدد نوفمبر ١٩٧١، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ١٣٥ و ١٣٦.
- ( ١٦ ) صبري حافظ، مجلة «الآداب» اللبنانية، عدد يوليو (تموز) ١٩٧٣.
- ( ١٧ ) مجلتي «الحوادث» ديسمبر ١٩٧٨، و«الموقف العربي»، فبراير ١٩٧٩، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ٩٧.
- ( ١٨ ) نشر الحوار بمجلة «الوعي العربي» الاتحادية القاهرية، عدد ديسمبر ١٩٧٦، وفي كتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية» ص ١٢٢.

(١٩) مجلة «الموقف الأدبي» السورية، عدد نوفمبر ١٩٧١، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية»، ص ١٣٧.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٢١) نشر هذا الحديث بمجلة «الحوادث» اللبنانية اللندنية، ديسمبر ١٩٧٦، وبمجلة «الموقف العربي» القاهرية المحتجبة، فبراير ١٩٧٩، وكتابي «أضواء جديدة على الثقافة العربية» ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٢٢) مجلة «الإذاعة والتلفزيون»، عدد ١٤ يناير ١٩٨٤، القاهرة.



# «الهماميل»

فترة في محاولات سابقة



بمقام:  
د. محمد  
حسن  
عبد الله

قبل أن ندخل إلى العالم الخاص لرواية «الهماميل» ينبغي أن نشير إلى ثلاثة أمور، نستعين بها على وضع هذه المحاولة الفنية الطيبة في موقعها الصحيح، من سياق الظاهرة الروائية. أولها أن هذه الرواية تأتينا من الاسكندرية، وليس مؤلفها «مصطفى نصر» أول من كتب الرواية هناك، ومن قبله يوسف عز الدين عيسى ومحمد الجمل وغيرهما أيضا، وإنجازاتهم معروفة، ولعل مصطفى نصر - في هذه الرواية - أقربهم أو أحرصهم على إبراز دور مدينته - الاسكندرية - في الجهاد الوطني قديما وحديثا، أو بعبارة أخرى: إبان الجيل الماضي حين كان الجهاد موجها ضد قوى الاحتلال، والعناصر المتعاونة معها، والجيل الحالي الذي يجاهد ضد التخلف الاجتماعي، وسيطرة رأس المال، وتحريف القيم والمبادئ السياسية الشريفة.

ومن الطبيعي أن يبرز هذا الهدف النبيل، ويتشخص من خلال التركيز على شخصيات إنسانية - حقيقية أو مخترعة - تدافع عن قيم العدالة والشرف والتقدم، وتنتمي في نفس الوقت إلى الاسكندرية، وإلى أبنائها المجاهدين، حتى وإن كانت هذه الشخصيات لا تعيش حالياً فيها، كما يبرز هذا الهدف ويتشخص في العناية بعنصر المكان، وإذكاء معالمه الخاصة المميزة، ومن هنا كان عنوان الرواية «الهامل» وما يدل عليه، فهو اسم حي يقع بين المنشية واللبن (من أهم أحياء الاسكندرية القديمة التاريخية) وفي هذا الحي - كما تقول الرواية - تكثر ورش السباكة والحدادين، التي تعمل أكثرها في صناعة الهامل، وهي القواديس التي تحمل الماء في السواقي، ولهذا سمي الحي باسمها.

الأمر الثاني أن «الهامل» ليست العمل الأول لمؤلفها مصطفى نصر، فقد سبقتها رواية «الجهيني» - نسبة إلى جهينة وهي قرية كبيرة في جنوب الصعيد، ولكن الجهيني في الرواية لا يعيش في تلك القرية النائية، إنه يعيش في الاسكندرية، ونحن نعرف أن صعيد مصر قوة طاردة - بشريا - لقلّة فرص العمل وضيق الرقعة الزراعية، وإن أهله يتجهون عادة إلى الشمال، إلى المدن الساحلية أكثر من غيرها، ومنها الاسكندرية، وهذا يعني - باختصار - أن الكاتب رصد جانبا من التغير الاجتماعي في مدينته الكبيرة، من خلال شريحة معينة، هي طائفة الصعايدة المتوطنين في الاسكندرية. وإذا فإنّ عناية الكاتب برصد البيئات الخاصة، وصراع الموروث والمكتسب في حركة تغير دائمة، ليست جديدة، أو ليست محاولته الأولى في «الهامل» التي تظهر فيها شخصية فتى من جنوب مصر، صعيدي، سكندري، يقوم بدور وطني مرموق، غير أنه يخفق، فيضيق عليه، حتى يسقط.

### شراب جديد في أكواب قديمة

وقد نلتقط وصفا للرواية - على غلافها الأخير - لتتعرف من خلاله على الأمر الثالث، ومن ثم نتخذ مدخلا إلى عالمها الخاص، أو بنائها المميز، أما العبارة الوصفية التي نعني فتقول إنها «رواية جديدة وإضافة بارزة في شكل الرواية العربية



الحديثة». لا غلثك الآن حكماً على هذا القول، ومدى ما فيه من دقة أو مجاملة أو تشجيع للكاتب، وقد يكون الحكم نفسه غير مطلوب، وما يعيننا في العبارة هو إشارتها المحددة إلى أهمية الشكل، وهو مانوفاق عليه، بل إننا نرى أن مجال الإبداع الحقيقي بالنسبة للرواية العربية، والتحدي الكبير الذي يواجهه كتابها، بعد عشرات السنين من السباحة في أنهار لا تنبع من أرضنا، ولا تفيض بمياهنا. فضلاً عن أن «الموضوع» ليس هو الذي يفرق بين فن أدبي وفن آخر، فإننا بعد موجات من المد والجزر، في الحكم لمواضيع معينة بأنها جيدة أو مقبولة لأنها أكثر غوصاً في مشكلات الطبقات الدنيا، أو اهتماماً بالمعاني الوطنية. . نكاد نكون انتهينا إلى أن صدق النية وحده لا يكفي، وتعليق اللافتات وطرح الشعارات ليس هو الذي يمنح عملاً فناً إشارة البقاء واستمرار القبول. العمل الأدبي أولاً وأخيراً تشكيل فني وسيلته اللغة، وفي الرواية تتشكل الأبعاد من طبائع المكان، وحركة الزمان، وتنوع الشخصيات، وتوزيع الأحداث الجزئية على مساحة الرواية، اللغة - بالضرورة - هي الأداة لتحقيق هذه الأبعاد، وضبط التناغم والإيقاع بين جزئياتها.

على أننا لا نتعسف فنطالب كل كاتب بأن يبتكر لأحداث روايته شكلاً لم يسبق إليه، فهذا غير ممكن عملياً، وليس هذا الابتكار المطلق - على فرض إمكانه - هو مصدر المتعة الوحيد أو الأساس للقارئ، ومن قديم أشاروا إلى «الشراب الجديد في الاكواب القديمة» وإلى «فصائل الأشكال الأدبية» وتوالدها وتحورها، حتى ناظروها بنظرية دارون في الأنواع، والتطور، والاختيار الطبيعي، وهذا يعني - مهما قيل في صوابه أو التحفظ في قبوله - أن الأنواع - أو الأشكال الأدبية - تنتظم في سلاسل، وتحكمها أصول تحد من حركتها، وتعيدها إلى قواعدها المستقرة. وقد يعني هذا في النهاية أن الكاتب الفرد لا يمكنه أن يبدأ من فراغ، أو أن يتجه إلى فراغ. . إنه ثمرة قراءاته ومكوناته، ومهما تمرد على هذا الأساس المكين فإنه مشدود إليه لا محالة، معبر عنه وإن يكن بصورة محورة، أو هي هذا الشراب الجديد في الأكواب القديمة، وهذا المعنى هو الذي أخذنا في الاعتبار ونحن نجمل رؤيتنا لهذه الرواية في عنوان، فهي نوع من القراءة، أو الاجتهاد، الذي يستمد مقوماته من محاولات روائية سابقة، على

أن الجهد الخاص، أو جانب الابتكار في «الهامل» لا ينحصر في هذا الاستمداد المباشر، وإلا لم يكن ابتكارا ولا يستحق هذا الوصف، وسنرى كيف وظفته البنية الفنية توظيفا خاصا، أعطى المحاولة الروائية هنا شكلا جماليا متميزا. . ومن ثم دلالة أو مضمونا فسيحا أو شاملا.

## هيكل التوازي

لكي نلم بهذا نتعرف على تخطيط المادة الأولية، الزمانية، المكانية أصلا، لأن هذين العنصرين بمثابة الهيكل الذي قام عليه التوازي، وبخاصة حين نعرف أن أحداث «الهامل» تجري في زمانين، بين جيلين. . تبدأ بجيل الأبناء وبه تنتهي، ولكن جيل الآباء يتمتع بحضور شبه مستمر، بوسائل متعددة، كما سنرى، أنه وجود تاريخي، ولكنه يتخلل، ويلتحم، يتفاعل مع الزمن الآني، ولعل هذا من أهم ما أضفاه الكاتب على قراءته لروايات سابقة حاولت أن تمتد بين جيلين أو أكثر.

في الصفحة الأخيرة من الرواية يشير مصطفى نصر إلى أنه انتهى من كتابة روايته في أكتوبر ١٩٨٥ «وقد نشرتها سلسلة روايات الهلال - فبراير ١٩٨٨» ولكنها تبدأ وتتناول حقبة تقع في أواسط السبعينات، وتشير إلى حرب أكتوبر، وزيارة نكسون للقاهرة، وهي حقبة مدانة عند الكاتب، بدأ فيها «الانفتاح»، فاختلط أصحاب المشاريع الانتهازية، بالمحتالين، واجتمعوا ليعصفوا بالثأر الاشتراكية التي بذل عبدالناصر عمره في حمايتها، على أن هذا - على ضراوته - بعض البلاء الذي عانت به البلاد في ما يمكن أن يطلق عليه مرحلة الارتداد عن المبادئ والسياسة الناصرية، هناك أيضا الباشاوات الجدد من أصحاب المناصب والنفوذ، الذين جعلوا المؤسسات الصناعية والاقتصادية الكبرى، والمأمولة لترسيخ التقدم وحماية الاقتصاد، تكايا خاصة للأُنصار والاتباع والمحاسيب، يديرونها بالأهواء، يجعلون مصالحهم الخاصة هي الحق الوحيد الأولى بالاعتبار. هذا الحيز الزماني يشغله الدكتور صالح، الذي اعترضت مستقبله إجراءات الثورة في بدايتها دون ذنب منه، فطرد من الكلية الحربية، لكنه استطاع أن يقف على قدميه، ويتخرج في كلية العلوم، ويحصل على

الدكتورة، ويخترع حتى يطلبه رئيس المؤسسة لينشيء مصنعا يحقق فيه اختراعه .  
وصفية الصحفية التي لا تزال ترفع صورة عبدالناصر في مكتبها بالصحيفة، وتعلق  
لافتات عصره الزاهر، وتلامس سنن الأربعين دون أن تشعر بقلق الأنوثة وهي تراقب  
أشعة الجبال الغاربة . ثم ضابط الشرطة الكبير - عمرا ورتبة - أبو الوفا حسنين،  
الذي يمثل ميراثا ثقيلا، على المستويين الفردي والاجتماعي، فهو ابن أبيه، خولي  
الزراعة الذي كان يرتجف أمام الباشا الاقطاعي، ويتبعه تبعية الكلب الذليل،  
وقدوته أخوه أبو زيد، الذي سبقه إلى مدرسة الكونستبلات، وعمل في قلم المباحث  
تحت رئاسة الإنجليز، وتفوق عليهم في مطاردة الوطنيين . وشخصيات أخرى أقل  
أهمية، لكنها تعمق الاحساس بالواقع المرحلي، والانقلاب الأخلاقي - أو  
اللاأخلاقي - الذي ساد الفترة، مثل الضابط يسري القاضي، الذي أحال نفسه إلى  
التقاعد عن الخدمة العسكرية، وقد شارك في حروب وطنه بشرف، لكنه الآن يريد  
أن يشارك في غنائم الانفتاح، بافتتاح مكتب تصدير واستيراد، دون أن تكون لديه  
فكرة عما سيصدر أو يستورد، لكنه على أي حال أثري، وأرضى زوجته التي تأبت على  
سلوكه أولا، ثم سبحت مع الموجة أخيرا ونعمت بغطاها .

### صور مكررة عن الأندلس

هذا هو الجيل الراهن، ورموزه العلمية، والعملية، وتبدأ مأساته بانحراف قد  
يبدو فرديا، أو يمكن التصدي له، لكنه لا يلبث أن يتفاقم حتى يكتسح الأمل،  
ويحطم كل شيء . أبو الوفا الضابط العجوز يتزوج فتاة صغيرة، في عمر ولده، أصبح  
يغار عليها حتى يسارع إلى اتهامها بالخيانة، بل يغار من ولده الوحيد الذي يقاربها في  
العمر . يموت الولد في حادث سيارة، فيعتبر الأب نفسه مسئولاً، فتزداد أعصابه  
اهتزازا، حتى يغمر عليه في مقر عمله الأمني، يصل الخبر إلى حاميه «الباشا»، وقد  
كان زميلا قديما، لكنه الآن في موقع من يستأذنه قبل الدخول عليه، ويحتمي بنفوذه .  
يقرر الباشا أن ينقله إلى عمل مدني، ويختار له وزارة الصناعة، ويحدد له مصنعا قريبا  
من الاسكندرية حتى لا يبتعد عن موطنه وأهله، وهكذا يتحول الدكتور صالح -

أستاذ الكيمياء الصناعية، الذي ضحى بموقعه في الجامعة ليقيم هذا المصنع - يتحول إلى شخصية ثانية، بل ثانوية، يأتمر بأمر ضابط شرطة قديم، يرى أن كل المطلوب منه هو إدارة المصنع، والإدارة في مفهومه هي الشدة والحزم (ص ٤٠، ٤١) وتكون نتيجتها عدم استكمال المصنع وهو تحت الإنشاء، وتوقف كل شيء، بعد أن قرر الضابط طرد الدكتور صالح .

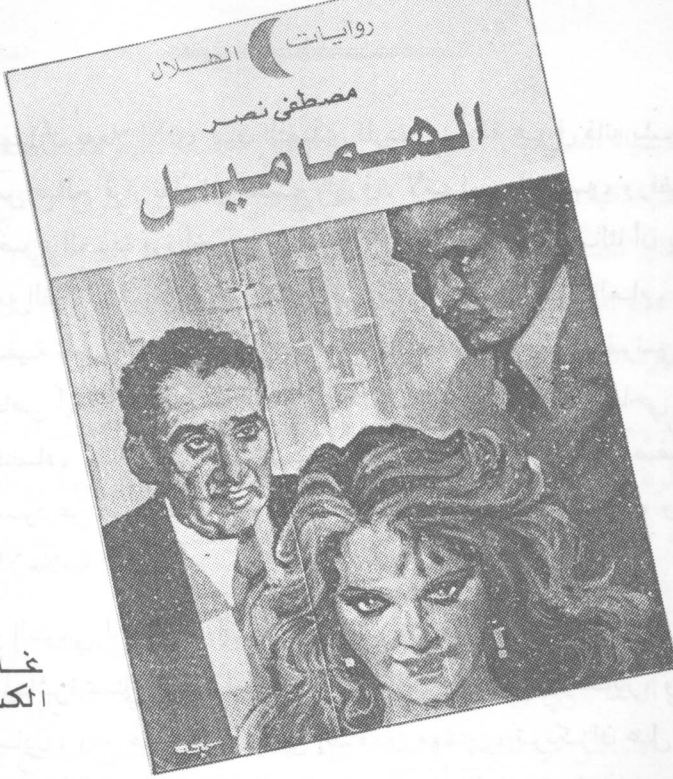
وإذ ينحصر عالم الدكتور صالح في المصنع، يتسع عالم «صفية» حتى يشمل القضية الوطنية، والتغير الاجتماعي، هي مهمة بالانفتاح، مهمة ورافضة لزيارة نيكسون، ترى هذا كله مقدمة لأندلس أخرى تطعن قلب الأمة في الصميم، تكون فيه مصر ذاتها هي الأندلس القادمة، لقد خلعت الأندلس جلدها وغيرت لونها حين دمرت فيها قيم الانتفاء العربي، فتدمير القيم هو المقدمة الضرورية للتحويل الكامل، وهي ترى أن ما يجري في مصر السبعينات يمثل نقطة البداية . . تدمير القيم، نحو الهدف . . الأندلس مرة ثانية، أو ثالثة!! وإذ يتحدد عالم الدكتور صالح بالمصنع، رمز لإنجازه العلمي وقدرته على تجاوز مجنة الطرد من الكلية الحربية، وينداح عالم صفية ليشمل مصر، والتاريخ القومي، وهموم المجتمع، يضيق عالم «أبو الوفا» فلا يتسع إلا لذاته ورغباته، يضيق حتى عن ولده الوحيد، وزوجته الشابة التي اخلصت له الودّ، وخادمه العجوز الذي يكبر والده، إنه لا يعبأ بشيء على الإطلاق، ولا يهيمه المصنع الذي جاءته رياسته هبة، ولا يؤرقه أن العمال تأتي، وتجلس، وتنتظر، دون أن تصنع شيئاً!!

## وعي فني واجتماعي

ثلاث دوائر من الاهتمام: بالنفس الأنانية، بالمشروع العلمي المحدد، بالوطن والتاريخ، وإذا كانت الدائرة الأضيق هي الأكثر تحكماً، فإنها وضعت ختاماً للمصنع، لكنها لم تقض على الدكتور صالح، وصفية، اللذين اندجبا في علاقة حب في النهاية، أو اعترفاً، وأعلننا علاقة حب دفين وجّه تصرفاتها منذ زمن طويل دون أن يحظى بالاعتراف، تحت وهم أنها أكبر منه ببضع سنين . . وإذا كانا لا يعرفان ماذا

بإستطاعتها أن يفعلا الآن، فإن التصدي للردة الزاحفة هو في ذاته بشير انتصار قادم. رفض صالح قرار نقله إلى مصنع الورق، لأنه ليس تخصصه، ورفض أيضا بحث موضوع العودة مرة أخرى إلى وظيفته الجامعية، ورفض ثالثا أن يعمل في مصنع أقامه القطاع الخاص وإن أغراه بأضعاف راتبه من القطاع العام، وكذلك رفضت صفية تأجير الفيلا التي ورثتها عن والدها لبنك مصري فرنسي مشترك (قطاع خاص أيضا) والطريف أن الطرف المصري في البنك الانفتاحي ليس من رجال الاقتصاد، إنه صحفي، بل رئيس تحرير الصحيفة التي تعمل بها صفية، وهذا مؤشر مقصود عن دور الصحافة ورجالها في قبول التغيير، وتطويعه، والمتاجرة بمواقعهم الإعلامية المؤثرة.

من الطبيعي أو المنطقي أن يختار الكاتب شخصيات الجيل السابق من ذوي العلاقة المباشرة بممثلي هذا الجيل، ليضمن واقعية الحضور، والتأثير، والمبررات للولاء المتبادل، ومع هذا حرص على إضافتين مهمتين، تركزان على وعي فني واجتماعي معا، فقد كان لهذا الجيل السابق قضيته الخاصة، ليست صورة طبق الأصل، أو محورة من قضية هذا الجيل. . إنهم هناك معنيون بمواجهة الإنجليز، وأدواتهم من الوطنيين، ووسيلتهم في هذه المواجهة كانت تكوين الجمعيات السرية، واغتيال العناصر المنحرفة وطنيا، ومن المتوقع أن قضية بهذا الحجم لا يصح أن ينحصر أبطالها في والد الدكتور صالح، واسمه: مجاهد عبدالراضي، وهو عجوز مريض يعاني الشيخوخة ويعيش على أمل أخير، أن يكتب مذكراته التي تصور جهاده في مساعدة مجاهدي طرابلس ضد الطليان، ثم مجاهدة الإنجليز في مصر، ووالد صفية، وهو علي منصور، هجر الإسكندرية إلى القاهرة، وربى ابنته الوحيدة على عشق الحرية، وناضل ضد الإنجليز بالكلمة، والتدبير، وحين قامت الثورة (١٩٥٢) انتظر أن يجد تقديرا لدوره، لكنهم تجاهلوه، أرسل إليهم خطابا بأن يعودوا بالجيش إلى ثكناته، ويتركوا السياسة للسياسيين، قبض عليه، وأغلقت الفيلا، وفصل صالح - ابن صديقه - من الكلية الحربية لأنه سجل عنوانه على الفيلا. لقد أضيف إلى هذين القطبين شخصيات أخرى بعضها مخترع، مثل ضابط المباحث «أبوزيد»،



غلاف  
الكتاب

وحدي الشعراوي الذي أوكلت له الجمعية السرية عملية اغتيال السلطان حسين ورئيس وزرائه أثناء انصرافهما من صلاة الجمعة بالاسكندرية، وقد فشلت المحاولة. تمكن أبو زيد من الإيقاع بحمدي الشعراوي، كما تمكن من الإيقاع بمساعدي ثوار طرابلس من قبل، فحكم عليه، ثم أفرجت عنه وزارة سعد زغلول الوطنية، على أن اغتيال السردار لي ستاك حاكم السودان، في القاهرة، وعجز الجهات الأمنية عن الإمساك بقتلته، حمل أبو زيد على مطاردة حمدي شعراوي، لأن تاريخه الوطني يساعده على التسلل إلى صفوف الجمعيات التي تستهدف مقاومة الإنجليز، ومن ثم الكشف عن قتل السردار. وقد رفض شعراوي كل إغراء، وصمد للجوع والتشرد، ثم سقط أمام الحاجة والحاح والده على طلب المساعدة، وبالفعل تمكن من الكشف عن عبد الفتاح وعبد الحميد عنایت ومحمود إسماعيل (الأسماء هنا حقيقية) وتم القبض عليهم.

## دور لكلاّب الصيد

لقد اختلفت نهاية الحدث الماضي، عن نهاية الحدث الآتي، كما اختلفت طبيعة الحدث ذاته. لقد سقط البطل بضغط كلاّب الصيد، وهو سقوط نهائي، بالنسبة إليه، وإلى زميله في الحادث القديم أحمد صابر الذي سبقه إلى السقوط، ولا يخفف من هذه النهاية الإحتفاظ ببعض رموز النضال القديم يجلسون على المقهى يتحدثون في الأمور الوطنية، ولعل الكاتب رمز باستسلام حمدي شعراوي للضغط لسقوط وزارة سعد زغلول الوطنية، ولكن الدوافع والمعاني تختلف. أما بالنسبة للجيل الحالي فالأمر أكثر تعقيدا. إن مناخ السقوط موجود، وهو مناخ تاريخي، بمعنى أنه مستمر، ولعل الخيانة هي التي تذكي الشعور الوطني عند الشرفاء المستكينين أو الغافلين. لقد تمكن صالح من نشر مذكرات أبيه عن النضال الوطني في الربع الأول من هذا القرن، ثم هذا من خلال سعي صفية، لدى مجلة غير التي تعمل بها، مجلة معارضة للانفتاح. إن صفية تعمل في مجلة «العهد السعيد» وما دام هذا هو شعار المعلن، فإن تقييم الماضي ونشر صفحاته لا بد أن ينتقص من سعادة أهل العصر، ولكن هذه المجلة المعارضة ما لبثت أن توقفت عن النشر، الذي سمحت الرقابة به عن غفلة، غير أن واحدا من «المثقفين» نبّه إلى خطورة ما ينشر، وتدخل أحد أبناء خونة الأمس، وهو سفير مهم اليوم، فاستعدى الدولة على مقالات تشهر بأبيه (ص ١٠٦) وأوقف النشر. ولكن النسيج الروائي لا يتجمع حول منع النشر، كما لا يستقطبه توقف مشروع المصنع واستبداد أبو الوفا التخريبي، ففي المحصلة بطلان وأكثر لا يزال نبض الانتفاء قويا في نفسيهما، وطريق المستقبل واضح أمامهما، وضوح الانحراف والعمالة على الجانب الآخر، وهذا هو الضمان (الوعي) ألا يكون ما يجري بداية لأندلس قادمة.

الزمن الروائي ممتد ليشمل حركة جيلين، بل إن الكاتب يستخدم من الجيل ما يمتد به إلى ما يتجاوز القرن العشرين إلى ما قبله، فليس مصادفة أن مجاهد عبدالراضي ولد عام ١٨٨٢، إنه عام الاحتلال.

هذه هي أبعاد الإضافة الأولى، وتتمثل في انتقاء القضية التي تشغل كلا من الجيلين، واختيار العناصر المتفاعلة سلبا وإيجابا، والنهاية الممكنة دون هروب رومانسي، ودون جفاف تسجيلي أيضا.

أما الإضافة الأخرى، فإننا نجد لها في تلك المقاطع المنتقاة من الأخبار الصحفية، والفقرات السردية، التي تأتي في سياق المذكرات حيناً، أو على لسان المؤلف صراحة، وهي تصف أحوالاً عامة وظواهر انحرافية سادت أو ظهرت إبان جيل الآباء، وكأنها الصدى المتوقع للقهر والحرب والفساد السياسي والتخبط الاقتصادي أوائل هذا القرن، لكنها تصلح هي بذاتها لوصف ما يعانيه ويعاينه أبناء هذا الجيل، وذلك مثل: حادث الاغتيال الذي تعرض له موكب السلطان حسين، انتشار تجارة الرقيق الأبيض (الدعارة) وهرب النساء من بيوت الأزواج والآباء، وانتشار الغش في المصوغات الذهبية، والعملة، انحراف أهل السلطة ممثلاً في ضبط وزير عار مع امرأة انتحرت، تعذر الزواج على الشبان بسبب الغلاء، ظهور إمارات الجنون على السلطان حسين، وختام الحوادث مقتل السردار عام ١٩٢٤. لقد أظهر الكاتب مهارة فائقة في انتقاء هذه الجزئيات، واختيار السياق المناسب لها، بحيث تجنب الإطالة أو التكرار، فإنه وصف أحوال زمانه - كما يراها، منتصف السبعينات - بأقوى منطق، لأنه عاد إلى الماضي المتحقق، وفيه ارتبط السبب بالنتيجة، ليوجه الفكر إلى الأسباب الموازية أو المشابهة التي تجري الآن، والنتائج التي تعلن عن نفسها، تباعاً، وتبشر بالباقي الجنون والاغتيال!!

### بين زمانين

هكذا تحركت أحداث «الهامل» بين زمانين، مزوجة بين عدم الانقطاع في الشخصيات نسبياً، مع الانقطاع في الأحداث، فليس ما يجري اليوم استمراراً لما كان يجري بالأمس، لكن هذا الانقطاع لا يعني المخالفة، ولا المشابهة، إنه يعني التوازي، وهو تواز تحكمه ظروفه، لكنه لا يخرج عن قانون موضوعية الأسباب والنتائج، وقد استخدم مصطفى نصر وسائل فنية متنوعة لتأكيد التواصل المتقطع،



وما يعادله من التشابه والاختلاف معتمدا على التوازي أصلا، استخدم صلة القرابة: الآباء والأبناء، والأخوة، كما بين «أبو زيد» و«أبو الوفا» والصدقة، وزمالة العمل، وزمالة الهدف، وعلاقة الجيرة. ومن الناحية الشكلية استخدم التداخي، الذي ينقل الماضي إلى الحاضر محطما حاجز الزمان (ص ٤٩ مثلا) والمذكرات، والوثائق، وقصاصات الصحف، وحكايات الشهود.

أما بالنسبة للمكان. فإن الاسكندرية هي البيئة الأساسية، المؤثرة، الشديدة الحضور، غير أن الشخصيات تذهب إلى القاهرة، عبر الجليلين، وتؤسس جمعية مناصرة طرابلس في القيوم لسهولة تهريب المساعدات والرجال عبر الواحات والصحراء الغربية إلى ليبيا. إن الأماكن أقل تنوعا وقد كان هذا إيجابيا بالنسبة لتعميق الصراع الدرامي الذي لا يجب أن يتشردم على مشاهد مستجدة تشتت الاهتمام، لكننا نعتقد أن الكاتب لم يستغل «التيمة» التي وقع عليها بذكاء ملهم في «الهاميل»، وهي قواديس تحمل الماء، غير أنه لم يستخدم هذه التسمية الاستخدام الرمزي أو الإيقاعي المؤثر، واكتفى بالإشارة إلى معناها، وأنها اسم لحي شعبي كان يعيش فيه مجاهد عبد الراضي وهو طفل، أو صبي يتردد على ورشة أبيه، وتعرف هناك على صديقه علي منصور، وكان هذا أساس التعارف والصدقة بين صالح وصفية، كما تعرف مجاهد على حمدي شعراوي بطل حادثة الاغتيال والسقوط. لم يكن هذا كافيا، وفي مكنة «الهاميل» التي تحمل رمز الحياة، أن تكون في صناعتها، ودورانها، وأداء وظيفتها، حاكمة للإيقاع في الحوادث، وفي موسيقى اللغة الروائية، والكاتب يملك منها قدرا مبشرا بالامتياز، في بناء لغته الخاصة، الواضحة، الموقعة. من المؤسف أن الجانب الرمزي - في اللغة - وقف عند حدود أسماء الشخصيات، أو بعضها، من حيث تدل على المعنى المطلوب، أو النقيض، فالدكتور الكيميائي اسمه صالح. وهذا جيل البناء، أما أبوه فاسمه مجاهد، وهذا الجهاد المتمرد يأتي بعد فترة خضوع يمثلها الجد: عبد الراضي. أما والد صفية - وفي اسمها معنى الاصطفاء والخصوصية، فهو علي منصور، وهذا حكم على جهاده الوطني حتى وإن قبض عليه رجال الثورة وتأتي الدلالة العكسية في اختيار اسمي الضابطيين الأخوين، أولهما أبو

زيد، وهو عنوان البطولة الشعبية الملحمية، وهو في عداد خونة الأهداف الشعبية، وثانيها أبو الوفا ولم يكن فيه شيء من الوفا، إلا في أحط صوره الغريزية الحيوانية، وهي الوفاء لمطالبه. والحرص على الاستجابة لغرائزه التدميرية. أما زوجته الثانية «ملكة» فقد كانت - في بيته - مهانة مدانة، وهي بريئة. ويمكن أن نضيف الصحفي «مسعد» الذي انحصر تفكيره في إنشاء بنك مشترك مع الفرنسيين، وصحيفة العهد السعيد، إلى قائمة الدلالة المناقضة. لا شك أن الكاتب قضى وقتا وبذل جهدا في اختيار هذه الأسماء، لكنه جهد ضائع، أو غير بنائي، ولا يناسب موهبة متميزة، ومقدرة واضحة يملكها مصطفى نصر، ولسنا نرفض أن تكون لبعض الأسماء دلالتها الإيجابية أو العكسية، فهذا من حق الكاتب وما تقبله الوقائع، ويؤدي وظيفته وإن تكن محدودة، ولكنه - في الهاميل - بلغ حد الإسراف، الذي يمكن إن يسوق إلى شيء من التصنع أو التدخل لفرض تطورات وأخلاق قد لا تستدعيها حاجة الشخصية أو الحادثة أو الموقف.

### نسيج خاص

إن «الهاميل» التي كتبت في منتصف الثمانينات هي صيغة تمثل واستيعاب - أو قراءة جديدة - لأطيب منجزات الجهود الروائية لدى أهم كتاب هذه المرحلة، وبصفة خاصة نجيب محفوظ، وجمال الغيطاني، وليس صعبا أن نضع أيدينا على نقاط التمثل أو التأثير، ولكن الكاتب صنع نسيجه الخاص، بل رؤيته الخاصة، حين تحرك بين زمانين، بأسلوب متميز غير مسبوق، قام على مقادير متعادلة من التشابه والاختلاف، في الشخصيات والأحداث، ومساحات متوازنة من التواصل والانقطاع، وترامى الزمن الروائي عنده حتى تجاوز الأعمار المحددة إلى زمن التاريخ العربي، كما ترامى المكان وانداخ حتى غطى مصر كلها، وتجاوزها إلى ليبيا، والسودان، وإن لم يغادر - عمليا - ثلاث مدن مصرية.

إنني أعتقد أن الكاتب يملك إمكانات جيدة، وباستطاعته أن يكتب روايات قادمة أكثر جمالا واتقاناً من هذه الرواية الجميلة المتقنة، والتي تعاني من مشكلة

أساسية واحدة تفرعت عنها بعض الأمور الهامشية، وهي أنها حاولت أن تقول كل شيء. هذه ميزة، ولكنها في الفن الأدبي يمكن أن تنال من إحكام العمل، واتساقه. وقد حدث هذا بالطبع، فأخل بالسيطرة على السياق، ولكن ليس بالدرجة التي تدل على قصور في الموهبة أو العجز عن التكوين، إنه الطموح إلى أن يقول كل شيء، وهو طموح نتمنى أن يتخلص منه هذا الكاتب الواعد.

